سلطنة عمان
وزارة التراث القومى والثقافة

تراثنا

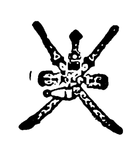
طلقات المعهد الرياضى
فى
حلقات المذهب الأباضى

تأليف
الفقيه الفاضل الشيخ
سالم بن حمود بن شامس السيابى
قاضى المحكمة الشرعية بمسقط



١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

سلطنة عمان
وزارة التراث القومي والثقافة



طلقات المعهد الرياضي
في
حلقات المذهب الأباضي

تأليفه
الفقيه الفاضل الشيخ
سالم بن حمود بن شامس السيابي
قاضي المحكمة الشرعية بمسقط

١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى دعم المذهب الأباضى بالكتاب والسنة والإجماع ، ورفع عن أتباعه المخلصين له تبارك وتعالى حكم الابتداع ، وجعل طلقات معهده الرياضى ترفع الشقاق والنزاع ، أحمده عز وجل حمداً يدوم له بلا انقطاع ، وأشكره سبحانه وتعالى شكراً يكون لنا فى رحمته اتساع ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله عمدة الحق وحجة الله على عباده ورحمته المهداة لهم من عنده ، صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعد فهذا كتاب فى المذهب الأباضى يشتمل على ذكر رجاله فى الصدر الأول ، لأنهم هم الأصل له والدعامة التى قامت عليها أركانه ، والحجة التى ثبتت معالمه وقام عليها بنيانه ، والمبدأ الذى هو المركز المهم ، فهم مصدره الذى يعرف به مورده وكل مالا أصل له لايعتمد عليه وما لامبدأ له فليس بحجة عند أهل العلم ، وصدر المذهب هم النهر الذى يمد غراس المذهب بماء الحياة فيورق ويثمر .

والكتاب قسمان كما سوف نبين ذلك إن شاء الله فى حلقات متتابعة متماسكة أولاهن وثانيتهن وثالثتهن ورابعتهن إلى ست حلقات ، فعقيدته وهو القسم الثانى وكل واحدة منهن لشئون مقامها جامعة ، ولنا أمام المقصود مقدمة لابد منها تكون كالأساس لما بعدها ، والله نستعينه ونستهديه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

مقدمة

لا يخفى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو النهر الذى وردت الأمة منه ، بل هو البحر الذى أفاض على أرجاء المعمورة ما عاشت به ، وأن أصحابه رضى الله عنهم هم الخلجان المتفرعة عنه ، وأن التابعين لهم هما الجداول والسواقى التى أمدت أرواح البلاد بمائها العذب ، وأنبتت الأرض ريفها وضواحيها ما عاشت الأمة به عليها ، ومازال ذلك الغيث المحمدى ملء خزانات العالم الروحى ، فياضاً محفوظ التراث ، مصوناً من الأحداث ، غير ممنوع عن أى متعطش إليه ، ولا مقطوع عن أى راغب فيه .

ولا يخفى أن أهل عمان كما أسلموا طوعاً واعتنقوا الإسلام وتقلدوا الدين الحنيف راغبين ، وخضعوا لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام غير مجبورين ولا مقهورين ، وقد شاركوا الصحابة المرضيين بخمسة من رجالهم معروفين ، أشبه بالجوارى[1] السيارة فى السماء ، وإن غطى عليهم حاسدهم فلا يؤثر على حقائقهم ومقامهم فى بيئة الصحابة غير مخفى .

ومما يسجل لأهل عمان الفخر ، ويعرب عن طاعتهم للحق خروج أحدهم إلى الرسول بحادث وقع له مع معبوده من دون الله ، فكسر معبوده المشار إليه مع أن غيره يقاتل عليه ، وتوجه[2] الرسول عليه الصلاة والسلام فى أقصى الجزيرة العربية فى الشرق ، حتى وافى المدينة المنورة وتلقى من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كل خير ، واستدعاه[3] لأهل عمان عامة دعوات متكررة لهـا قيمتها ، كما استدعاه بعد ذلك لنفسه خاصة ،

فحقق الله ذلك كله ، وأجاب الله دعوة نبيه عليه الصلاة والسلام لأهل عمان عامـــة ، ودعوة السائل خاصة بمـــا لا يخفى ، وهـــا نحن إن شاء الله نقص القضية عند الكلام على صاحبها نقـــلا عن رجال هم فى الإسلام أعلام ، وهم فى الأمة من لا يخفى مكانهم ، بين الأنام ولكل درجات مما عملوا والله ولى التوفيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

القسم الأول
المشتمل على أربع حلقات

الحلقة الأولى : حلقة الصحابة الذين أخذ عنهم الأباضية دينهم ، ونقلوا عنهم سنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضوان الله عليهم ، وفى مقدمتهم البحر ابن عباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما ، ابن عم النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن أهل المذهب أكثر نقلهم عنه كما يعرف ذلك من تتبع أقوالهم وأمعن النظر فى أعمالهم ، ودرس محرراتهم ، فهو الإمام لهم فى نقل السنة النبوية ، وعليه معول أكثرهم ومعتمد رواتهم ، فقد أخذ عنه جابر بن زيد أبو الشعشاء رضى الله عنه ، وهو أكثر علماء الأباضية وأجل حملة العلم لديهم ، وقد أجمعت الأمة على سعة علمه ولذلك لقب بالبحر .

قال جابر بن زيد ، رحمه الله ورضى عنه ، لقيت سبعين رجلاً من أهل بدر فحويت ما بين أظهرهم إلا البحر ابن عباس رضى الله عنهما فكدت أن أغرق ، ولقب أيضاً حبر الأمة لسعة علمه ، أى عالمها ، وأنه لكذلك وهو أعرف من أن يعرف به فلا نطيل المقال فيه وهو أشهر من نار على علم .

والثانى : عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوى أحد علماء الصحابة وأحد مشاهيرهم ، وهو أحد شيوخ أبو الشعثاء رحمه الله ، وقد أخذ عنه جابر ابن زيد الكثير ، وحمل عنه رواة الصحيحين وأرباب المسانيد كلهم ، وهو العلم السامى بين أعلام الصحابة رضى الله عنهم ، وقد أطال المترجمون عنه كالاستيعاب(١) والإصابة(٢) وأسد الغابة(٣) وغيرهم من العلماء الذين دونوا تراجم الصحابة فى الصدر الأول ، وهو من الشكاك لزهده ، فإن زهده

وخوفه من الله حيره ، والخوف من الله له على أنفس المؤمنين أثر أثير .
والله المستعان نسأله تعالى العون على رضاه والتوفيق لما يحبه ويرضاه إنه ولى كل شيء ، وإلى هذين الشيخين أشار الإمام السالمى[1] رحمه الله فى جوهره[2] حيث يقول : ثلاثة فى مكة عبادلة ثالثهم عبد الله بن الزبير[3]، قال فيه ولم يكن لابن الزبير أثر فى كتبنا إلخ .

والثالث فى علماء الصحابة الذين أكثر الأباضية النقل عنه : السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، لقوله عليه الصلاة والسلام فيها : « خذوا شطر دينكم عن هذه الحميراء »[1] رضى الله عنها فقد أخذ عنها الصدر الأول من المسلمين رضى الله عنهم ، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحتكمون إليها فيما يختلفون فيه ، فيرضون بحكمها ويسلمون لهـا لضبطها وعدالتها وقوة فهمها ، ولها فى كتب الأباضية فى المنقول عنها شيء غير يسير رحمها الله ورضى عنها .

الرابع من رواة السنة عند الأباضية أى الذين نقل عنهم الكثير : أبو سعيد الخدرى رحمه الله ورضى عنه ، ولا يخفى أنه من أجلة علماء الصحابة ، فهو علامة شهير وهمام نحرير ، أحـد حفاظ الحديث وأحد أئمة العلم وأحد نقلة السنة ، رضى الله عنه ، لقد كان كنزاً جمع جواهر السنة وحوى المهم منها وترجمته مع أهل الفن نيرة جلية .

الخامس : أنس بن مالك خادم النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وأحد الخصيصين بالرسول عليه الصلاة والسلام ، المعروفين فى مجمع الصحابة

المقرّبين لدى إمام الأمة وسيدها المصطفى المأمون في دينه ، الأمين فى أمته المرضى بينهم ، الثقة المعتمد الذى لا يعرف بعاب ولا يلم به ارتياب رضى الله عنه :

السادس : جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، الأنصارى السلمى من خيرة الأنصار ، ومن أعيان المسلمين الأخيار الذين عرفت منازلهم فى الدين وحمدت أعمالهم بين المسلمين ، وأصبحوا حجة صالحة فى الدين .

السابع : أبو هريرة الراوية المعروف الذى لا يخفى حاله بين رجال السنة ، إذ كان من أوعاهم وأحفظهم فى نقل السنة ، حتى استنكر بعضهم كثرة نقله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واعتذر إليهم بذلك العذر الذى له فى صدده معناه المعقول ، وقلّ باب من أبواب السنة إلا وله فيه رواية ، وإن لم ترضه الشيعة فله فى مسند الربيع[١] مثل ما فى غيره من مسانيد السنة :

ويكفينا أن ننوه بالبعض من هؤلاء الرجال كرمز لباقيهم ، فإنهم — كما قلنا عنهم — الجداول المتفرعة من النهر ، وكلهم كما يقول فيهم صلى الله عليه وآله وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »[١] وحسبنا من النساء عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ابنة الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، وزوج النبى صلى الله عليه وآله وسلم .

ولا يخفى أن أزواج النبى عليه الصلاة والسلام كلهن روين عنه أحاديث نقلها عنهن رواة السنة وحملة العلماء إلى الأمة ، وإن كان لعائشة رضى الله عنها فضيلة عليهن ، فإنها تروى الكثير وهى معدودة من العلماء فى السنة ، ليست ناقلة فقط ، فإن بعض الرجال ناقل فقط فضلا عن النساء

نقلة أمناء ، وبعضهم نقلة علماء ، يفهمون مقاصد الرسول ، ويدركون الغاية فى الرواية بمحض الدراية لا بنفس الرواية كما أشار إلى ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام فى قوله : « رب مبلغ أوعى من سامع »[١]، وقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « رب حامل فقه وليس بفقيه »[٢]، وبهذه الأحوال تمتاز الرجال فإن الله عز وجل خص من شاء بما شاء ، وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، أخبر عنهم الرسول عليه الصلاة والسلام ، بما يمتاز به بعضهم من بعض ، وتلك حكمة الله تبارك وتعالى فى بريته .

ولا يخفى أن معشر أهل عمان فى الصحابة خمسة رجال نذكرهم للتعريف بهم ، وليعلم أنا ممن اتبع الحق راغبين ، وهؤلاء الخمسة ، وإن كانوا ليسوا من حملة السنة ولا من علماء الصحابة الذين حماوا الشريعة ، ولكنهم من الصحابة بكل معنى الكلمة ، وتفتخر بهم عمان ، ولا يخفى شأن الصحابة وقدرهم ، لاسيما الذين لم تعرف لهم هفوة فى الدين أو زلة فى أمور المسلمين أو انحراف عن منهج المؤمنين ، وكذلك أيضاً لم يكن الصحابة كلهم رواة للسنة ، بل بعضهم يروى الكثير وبعضهم عنده القليل ، وقد فازوا باسم الصحبة ، فلو أنفق أحدنا مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه ، والحمد لله .

ومن هؤلاء الصحابة الخمسة الذين أشرنا إليهم :

الشيخ الطائى مازن بن غضوبة السعدى

كان مازن بن غضوبة المذكور من أهل سمايل ، وكان زعيم قومه آل طى فى سمايل والمقدم عليهم ، وكان كما قال عنه فى : إنسان العيون ، فى الجزء الأول ، وفى غيره من كتب التاريخ ، كان له صنم يقال له باحر — بالموحدة والحاء المهملة بينهما ألف وآخره راء مهملة — وقيل فى بعض الكتب : يقال له ناجر — بالنون والجيم وآخره راء مهملة — ولعل ذلك لتصحيف وقع فيه ، فإن الأحرف متشابهة والكلمة متقاربة الشكل : قال فى إنسان العيون بسيرة الأمين المأمون ، وهو المعروف بصاحب السيرة الحلبية [١] !

قال مازن بن غضوبة : كنت أسدن ، أى أخدم صنما بقرية عمان بالتخفيف تدعى سمايل [٢] . قلت هى بلدنا الحالى ، قال فعترنا ذات يوم عنده عتيرة أى ذبيحة ، وهى إذا أطلقت وقيل تختص بهذا الاسم إذا كانت فى شهر رجب ، قال فسمعنا صوتاً من جوف الصنم يقول : يا مازن اسمع تسر ، أى يسرك ما تسمعه . قال : ظهر خير وبطن شر ، والمراد بالخير : النبوة التى أرادها الله عز وجل لهذا الجيل الكريم على الله جل شأنه ، والمراد بالشر : الكفر الذى عليه الأمة :

قال : بعث نبى من مضر ، أى ابن معد بن عدنان يتصل نسبه إلى إسماعيل بن الخليل عليهم الصلاة والسلام ، قلت هذا تفسير للخبر المشار إليه ، وقوله بدين الله الأكبر أى بالدين الذى هو أكبر الأديان ، لأن الله تعالى وعد أن يظهره على الأديان كلها ، فيكون بهذا الاعتبار أكبرها ، أو أن أكبر صفة لله عز وعلا بمعنى العظيم فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فيكون صفة لاسم الجلال .

قال : فدع نحيتاً من حجر أى اترك المنحوت من الحجر ، فإنه لا ينفع

ولايضر ، ومن اتخذه رباً فقد كفر بالله شركاً ؛ فالنحيت فعيل بمعنى مفعول ، أى منحوت من الحجارة ، وهى لاتملك ضراً ولا نفعاً ؛ قال : تسلم من حرسقر ، والمراد بها النار والعياذ بالله ، وسقر علم عليها ، والمعنى : بتركك ذلك تسلم من عذاب الله جل جلاله .

قال مازن : ففزعت لذلك ، أى راعنى ذلك الصوت وأفزعنى ذلك الكلام ، قال مازن : وقلت إن هذا لعجب أى من الأمور التى يتعجب منها الإنسان ويستغربها ، حيث يخرج مثل هذا الكلام من الصنم المعبود ، فينعى لعابديه عبادته ويزعزع الذين اتخذوه إلهاً ، وهذا من عناية الله لعبده مازن ومن رحمته التى يسوقها إليه ، فيستقبلها باعتبارها رحمة من الله عز وجل .

قال مازن : ثم عترت بعد أيام عتيرة ، أى ذبحت ذبيحة أخرى لذلك الصنم ، أى كانوا يتقربون إلى أصنامهم بذلك . قال فسمعت صوتاً من الصنم ، أى كالأول يقول : أقبل إلىّ أقبل تسمع مالاتجهل ، هـذا نبى مرسل جاء بحق منزل آمن به كى تعدل عن حر نار تشعل وقودها بالجندل ، فكان هذا الكلام كالشعر لكنه ليس بشعر ، بل هو أشبه بسجع الكهان .

قال مازن : فقلت إن هذا لعجب وإنه لخير يراد بى ، قال ابن برهان الدين : أقول : ورأيت فى بعض السير تقديم هذه الأبيات أى التى مرت عليك آنفاً على ما قبلها ، وأن مازنا قال ثم سمعت صوتاً أبين من الأول وهو يقول يامازن اسمع إلى آخره والله أعلم .

قال مازن : فبينا نحن كذلك أى على هذا الحال الذى وقع لنا من الصنم ، إذ قدم رجل من أهل الحجاز ، قلنا له ما الخبر ؟ قال : قد ظهر رجل

يقال له أحمد يقول لمن أتاه أجيبوا داعي الله ، فقلت هذا نبأ ما سمعته من الصنم ، قال فنزلت إلى الصنم فكسرته جذاذاً أي قطعاً ، وركبت راحلتي وأتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فشرح لي الإسلام وأسلمت ، وأنت خبير أن مثل مازن وهو زعيم قومه لا يخرج من عمان إلى أرض الحجاز حتى يأتي المدينة المنورة إلا بركب يطمئن به ، وإذا كان أسلم مازن مع ركبه كانوا جملة يعدون في صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، إلا أنا لم نجد من يذكر أسماء الرجال الذين كانوا معه ، ولا يخفى عليك أيها القارئ الكريم ونحن نأخذ القضية من رواية الشيخ الحلبي ، وكان ينبغي أن يأخذها هو وأمثاله منا نحن ، لكنا أهملنا حقوقنا ، وبعد ما ضاعت ، عدنا نسأل عنها غيرنا ، قال وقلت أي بعد ما أسلم :

كسرت ناجر أجذاذاً وكان لنا
ربًّا نُطيف به ضلا بتضلال
بالهاشمي هدانا من ضلالتنا
ولم يكن دينه مني على بال

أي لم أكن محتسباً لدينه ، وأراد بالهاشمي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أي لم يسبق لي علم بدينه ثم قال :

يا راكبا بلغن عمراً وإخوتها
أني لمن قال ربي بادر قالي

قال : وعنى بعمرو وإخوتها بني خطامة وبني الصامت ، من طي وهي أي بنو خطامة من طي ، وقد أوردنا نسب مازن وبني خطامة وإخوتها في كتابنا (إسعاف الأعيان بأنساب أهل عمان)[1] المطبوع في قطر ، وفي كتابنا الثاني في الأنساب أيضاً المسمى (رعاية الأحساب بحماية الأنساب)[2]

قال ابن برهان الدين الحلبي : وهذه الأبيات أى اللامية ساقطة فى أسد الغابة ، قال مازن فقلت يا رسول الله إنى مولع بالطرب ، أى مغرم به وبشرب الخمر ، والهلوك أى الفاجرة ، والمراد بها الزانية من النساء التى تمايل وتنثنى عند جماعها ، وقيل الساقطة على الرجال أى لشدة شبقها ، وألحت أى دامت علينا سنون القحط ، أى أصيبوا بمحل قحط ، وسمى قحطاً لأنه يقحط الأمة أى يطردها من بلادها ، يعنى ، أن أعوام قحط مرت عليهم :

قال مازن :فذهبن بالأموال وهزلن الذرارى والعيال ، أى جاعوا حتى أصيبوا بالهـزال من الجوع ، قال وليس لى ولد فادع الله أن يذهب عنى ما أجد ويأتينا بالحيا[1] والخصب ؛ ويهب لى ولدا : وفى رواية زيادة تقر به عينى : فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن ،وبالحرام والحلال وبالخمر ، رياً لا إثم فيه ، وبالعهر — أى الزنى — عفة الفرج وأته بالحيا — أى المطر — وهب له ولدا تقر به عينه »[1].

قال مازن : فأذهب الله عنى ما كنت أجده ، وتعلمت شطر القرآن وحججت حججا وأخصبت عمان يعنى قريته وما حولها من قرى عمان: قال وتزوجت أربع حرائر ! ووهب الله لى ولداً سميته حيان أى تفاؤلا بالحياة لاسيما أن اسم اثنين من أجداده أيضا كل واحد منهما حيان : وهما الرابع والسادس ،فأحيا به ذكرهما قال وأنشأت أقول :

إليك رسول الله خبت مطيتى

تجوب الفيافى من عمان إلى العرج

والعرج موضع على طريق المدينة لوأراد بذلك المدينة :

لتشفع لى يا خير من وطئ الحصى
فيغفر لى ذنبى فأرجع بالفلج[١]

أى بالفرج والفوز بالمطلوب . قال مازن :

إلى معشر خالفت فى الله دينهم
فلا دينهم دينى ولا شرجهم شرجى

أى يعنى بذلك قوله حين نفروا منه بعد إسلامه وأنبوه كما حكى ذلك عنهم ، لا شكلهم شكلى ولا مذهبهم مذهبى ولا طريقهم طريقى ، أنا مباين لهم : قال مازن :

وكنت امرءاً باللهو والخمر مولعا
شبابى حتى آذن الجسم بالنهج

بالبلا والتغير . قال مازن :

فبدلنى بالخمر خوفاً وخشية — وبالعهر إحصاناً فحصن لى فرجى
فأصبحت همى فى الجهاد ونيتى — فلله ما صومى ولله ما حجى

وهذا تحدث بالنعمة .

قال مازن : فلما رجعت إلى قومى - أى بعد - إسلامى أنبونى ، أى عنفونى ولامونى وشتمونى وأمروا شاعرهم فهجانى ، فقلت إن هجوتهم فإنما أهجوا نفسى ، أى لأنهم منى وأنا منهم ، فآثر الإعراض عن مشاكلتهم والإغضاء عن مباراتهم ، قال وتنحيت عنهم ، قلت ليس هذا بمستغرب ، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان

مقرونا بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة ، وقد وقع عليه من قومه ما وقع مما يعرفه كل الناس حتى تآمروا على قتله ومن مال إليه ورغب فى دينه ، فله حظه مما ابتلى به عليه الصلاة والسلام ، وهذا هو شأن الأمور فى أول وقوعها حتى يستقر قرارها ، وكأنهم كان لهم شاعر معروف ولم نقف على اسمه ، وليتنا عرفناه ، فنضيفه إلى أضرابه فى كتابنا : (زهر الخمايل فى ذكر شعراء سمايل) .

قال مازن : وابتنيت مسجداً أتعبد فيه ، قلت هو المعروف فى سمايل باسم مسجد المضمار قريباً من محلتنا ، وهو الذى جدد بناءه الآن سلطان عمان الحالى قابوس بن سعيد ، وقد أحسن فى بنائه كل الإحسان .

قال ابن برهان: لا يأتى هذا المسجد مظلوم فيتعبد فيه ثلاثاً ويدعو على من ظلمه إلا استجيب له ، ولا دعا ذو عاهة من برص أو غيره إلا عوفى. قال ثم إن القوم ندموا ، أى قوم مازن ندموا على ما فعلوا فى حق هذا الشيخ الصحابى المؤمن المخلص ، وأى إخلاص أكبر من إخلاص مازن الذى كسر معبوده وركب راحلته يقطع بها الفيافى والقفار ، قاصداً النبى عليه الصلاة والسلام . قال مازن بعد أن قال وندموا على ما فعلوا وطلبوا منى الرجوع إليهم ، فأسلموا كلهم ، وبهذا يكون الإسلام فى سمايل بواسطة هذا الشيخ الصالح الذى طهّر نفسه من أوضار(١) الفساد والضلال ، ورجع إلى الله مخلصاً له حتى رأى أثر إخلاصه فى حياته ومسجد المضمار معروف بإجابة الدعاء فى سمايل ، ولازال أهل الفضل يسيرون إليه فى الظلم فيتعبدون فيه ويدعون الله عز وجل فى مهماتهم ، فيجيب دعاءهم والحمد لله .

قال الإمام السالمى رحمه الله فى صدر الجزء الأول من تحفة الأعيان: (ع)

وفى حديث مازن بن غضوبة ذكر أن أول من أسلم من عمان بن غضوبة بن سبيعة بن شماسة بن حيان بن المر بن حيان بن أبى بشر بن خطامة ابن سعد بن نبهان بن عمرو بن الغوث بن طى ، وكان من أهل سمايل ، قدم على رسول الله صلى الله عايه وآله وسلم عند أول ظهور الإسلام بعمان ، قلت المعروف أن مازنا أتى النبى عليه الصلاة والسلام فى المدينة ، فلعله أتاه فى أول نزوله بها كما يدل عليه قوله رحمه الله عند أول ظهور الإسلام ، فإن ظهوره فى مكة كان كتماناً لا ظهوراً بحسب الاصطلاح ، قال وأسلم ودعا له النبى صلى الله عليه وآله وسلم ولأهل عمان بخير ، ثم ذكر بعد هذا السبب الواقع على مازن من الصنم إلى أن قال له القادم من الحجاز ما قال كما ذكرنا سابقا ، قال وفى العتبى أن القادم قال ظهر رجل يقال له محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف يقول لمن أتاه : أجيبوا داعى الله فلست بمتكبر ولا جبار ولا مختال ، أدعوكم إلى الله وترك عبادة الأوثان ، وأبشركم بجنة عرضها السموات والأرض ، وأستنقذكم من نار تلظى لا يطفأ لهيبها ولا ينعم من سكنها .

قال مازن: فقلت هذا والله نبأ ماسمعته من الصنم ، أى فكان مصداقاً لذلك الكلام الذى سمعه من صنمه . قال فوثبت إليه وكسرته جذاذاً وركبت راحلتى حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قلت والله إنها لرحلة ميمونة أبشريا مازن بعدها بخير . قال فسألته عما بعث له فشرح لى الإسلام . وهذا يدل أن رسول الله عايه الصلاة والسلام سر بمقدم مازن ورأى إقباله قابلا لأن يشرح له الإسلام .

فكأنه أفاض عليه التعاليم اللازمة ، وألقى إليه قواعد الإسلام التى لابد منها إذ جاء من شقة بعيدة ، ولابد أنه يلزم أن يزود بما يقتضيه المقام ، لأن مازناً جاء متهيئاً لهذا الصدد مستعداً له راغبا فيه ، ولذلك قال على أثر التعاليم الملقاة إليه ، ونور الله قلبي للهدى ، ثم سرد الإمام نور الدين رحمه الله القضية نقلا عن العتبي [١] ، ولم نعرف العتبى هذا ، ويظن بعض الناس أنه العوتبي [٢] وليس كذلك ، ولعل العتبى المؤرخ القديم ولم يكن عمانياً ولهذا حاج الحال إلى أن ننقل القضايا العمانية عن رواة أجانب عن عمان ، كالطبري [٣] وابن خلدون [٤] وصاحب الكامل [٥] وصاحب المروج [٦] وأضرابهم ، الذين هم فى غير عمان ، فتأتيهم الأخبار عن عمان مقلوبة ومحرفة ومزايداً فيها ومنقصا منها ، وساقطة الأهمية ومبهمة .

وقد تكلمنا عن هذه الأحوال فى كتابنا عمان عبر التاريخ [٧] ، فلعل غافلا يتنبه أو ناسيا يتذكر أو جاهلا فيتعلم ، فإن الإنسان خلق قابلا للتعلم فى كل آن :

وقول مازن : وحججت حججا فدل ذلك على أنه عاش فى الإسلام عهداً ، لكنا لا نعلم ذلك فى حياة النبى أو بعده ، وقد علمنا أنه جاء عمان بعد إسلامه وصار بينه وبين قومه ما صار ، ثم تراجع قومه عما كانوا عليه ، وراجعهم مازن وكأنه عاد إلى النبى عليه الصلاة والسلام فى العام القابل ، ولعله عاد إليه حاجا كما هو المفهوم :

قال مازن : وأخصبت عمان أى ببركة دعاء النبى عليه الصلاة والسلام ، قلت وكان السبب فى ذلك مازن ، حيث طلب ذلك من النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان الخصب فى تلك السنة وما بعدها كما صرح به مازن نفسه ، قال وأقبل عليهم ، أى أهل عمان — أقبل عليهم الخف والظلف وذلك كناية عن نماء المواشى إبلا وبقراً وغنما ونحوها . قال:

وكثر صيد البحر وظهرت الأرباح فى التجارات ، وآمن عدد من أهل عمان ، يعنى أسلموا على يديه إذ كان رحمه الله داعية لهم إلى الإسلام .

قال مازن : فلما كان فى العام القابل الذى وفدت فيه على النبى صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فقلت يا المبارك ابن المباركين الطيب ابن الطيبين ، قدهدى الله قوما من أهل عمان ومنّ عليهم بدينك ، وهذا يصحح مافهمناه ، فإنه دال بمفهومه ومنطوقه أن كثيرا من أهل عمان قد أسلموا على يد مازن المذكور ، فقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه مازن المذكور : دينى دين الإسلام سيزيد الله أهل عمان خصباً وصيداً [الخ] ثم قال عليه الصلاة والسلام « طوبى لمن آمن بى ورآنى ، ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى ، ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى ولم ير من رآنى وأن الله سيزيد أهل عمان إسلاماً »[١]

هذه رواية مازن فى إسلام أهل عمان ، وعليه فهو صحابى صحيح الصحابية من غير شك رحمه الله ورضى عنه ، ومن حيث إن مازناً كان من أهل سمايل ، ولم يكن كرسى الملك إذ ذاك بها ولا بنزوى[٥] ولا بمسقط[٦] ، وإنما كان بصحار[٧] وبين صحار وسمايل مسافة نائية والطريق غير آمن ، حيث إن الناس فى جاهلية ، كتب النبى عليه الصلاة والسلام إلى جيفر[٨] وعبد[٩] ابنى الجلندى ملكى عمان إذ ذاك فى إسلامهما ، ولا شك أن إسلامهما يعم قومهما فى عمان ، ولعل النبى عليه الصلاة والسلام سأل مازناً عن زعماء عمان إذ ذاك ، فأخبره عنهما وأن بينه وبينهما مسافة نائية لا يعلم مازن فى سمايل عنهما شيئاً ، وربما هما لا يعلمان عن ناحية سمايل وما إليها شيئاً ، لأن الملوك جل أنظارهم إلى العواصم غالبا . ولا ينظرون إلى ناحية الديانة إلا ما شاء الله ، فإن أيام الملوك تضم أرهاطا متباينة وأمماً مختلفة فى الديانات ، وجل همهم ما يصلح الملك كيف كان وأياً كان ، وهذا شأنهم فى كل الأجيال فلذلك كتب النبى صلى الله عليه وآله وسلم إلى جيفر وعبد وليس ذلك الآن من صددنا . وإنما بيناه كما يلزم فى التاريخ العمانى العام ، وهنا إنما نحرر معنى الصحابية لأهل عمان :

الصحابى الثانى عبد الله بن وهب الراسبى

كان عبد الله بن وهب الراسبي من أهل عمان ، وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فى جملة من وفد عليه من أهل عمان ، وكان معروفاً بالزهد والعبادة حتى لقب بذى الثفنات كما وصفه بذلك الكثير ، وكان إمام أهل النهروان إذ اختاروه لفضله وكرمه وشجاعته ، وكان أباها ونفر منها أولا ولم يقبلها ، ولما رآهم يتدافعونها من واحد إلى آخر قال هاتوها والله لا رغبة فيها ولكن للقيام بحقوق الله كما يلزم ، قال بعضهم: عبد الله بن وهب الراسبي من الأزد ومن أئمة الأباضية ، عرف بالعلم والرأى والفصاحة والشجاعـــة ، وله فى العبادة الأعاجيب ، أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشهد فتوح العراق مع ابن أبي وقاص ، وكان مع على بن أبي طالب فى حروبه ، وكان من جملة من أنكر التحكيم ، قتل فى النهروان .

قال غيره: وإمام المسلمين يعنى أهل النهروان عبد الله بن وهب الراسبي المعروف بالعبادة والزهادة والرشد والشجاعة وعزيمة الصبر على الحق ، ينظر الجنة من صفحة سيفه يرى الموت فى طاعة الله أشهى من الأرى(٢) ، كان عبد الله بن وهب الراسبي أزدياً بايعه المسلمون عن رضاً ورغبة منهم ، فيه لما يعلمون من صلاحه للدين والدنيا ، ولما بايعوه بعثوا إلى أصحابهم مسرورين ببيعتهم مبتهجين برضاه وقبوله على يقين واطمئنان أن على بن أبي طالب لا يعود يطالبهم بإمامة أو يدعيها ، لأن المسلمين لما بايعوه لم يكونوا مجبورين ولا مقهورين على إمارته ، لأن الإمامة لم تكن لأحد بغير رضاً من المسلمين ، وإذا رضى المسلمون أحداً لإمامتهم ثم

رأوا منه ما يخالف الحق فلهم خلعه وعزله عن الأمر ، لأن الإمامة لم تكن ميراثا لأحد ولا ملكاً لإنسان أو طائفة ، ولذلك لما خالف عثمان قاموا عليه ليعتزل أو يتوب مما اقترف ، ولما لم يفعل شيئا من ذلك قتلوه فى بيته انتقاما للحق ،وكان على بن أبى طالب من جملة القاتلين ،إذ كان على الأقل راضياً بقتل عثمان ، ولو كان عثمان غير مستحق للقتل لكان القاتلون له ظالمين ، ولكان علىّ شريكاً لهم فى ظلمهم حيث لم يدفع عنه ، وكيف يمكن قتل عثمان لو لم يكن مستحقا للقتل ، وفى المدينة مائة ألف سيف ، فمن ذا الذى يستطيع قتل الإمام فى مأمنه والحال هذا ، ولذلك لما رأى النهروانيون انخلاع على راضياً بسبب العهد الذى أعطاه وهو الرجل الديّن لا يعود يطالب بالإمامة فتسارع القوم إلى إقامة إمام لهم خوف أن تفترق الكلمة فبايعوا عبد الله بن وهب[1]

الثالث أبو العباس صحار بن العباس

لا يخفى أن أبا العباس صحار المذكور من أجلة رجال المذهب ، إذ أخذ عنه المسلمون أدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فروى عنه ثلاثة أحاديث وهو شيخ أبي عبيدة مسلم ؛ وهو أول من ألف فى الأدب وله تآليف فى أمثال العرب ، حكى ذلك عنه أبو النديم[1] وكان من خاصة أبي الشعثاء ، بل من أخص أصحابه رضى الله عنهم ، وهو من عبد القيس عمانى الأصل، كان رجلا ثبتا فى الحق عمدة فى الدين ، لا يقل عن إخوانه رضى الله عنه ، وقد فاز بحكم الصحبة إذ رأى النبي عليه الصلاة والسلام وروى عنه ، وقد نوه به العلماء فى مقامات لها أهميتها ، ولا يزال يعد فى طليعة الركب المسلم وفى موكب العلماء الذين هم الحجة ، وكان فى شهير النقل أنه تابعى كأبي الشعثاء ، وجعفر بن السماك[2] وأبي عبيدة والربيع بن حبيب ، ثم ظهر بتتبع التاريخ أنه صحابى ، فما ورد فى بعض الآثار أنه تابعى فذلك أصل هذا القول .

وإليه أشار الإمام السالمى رحمه الله كذا صحار ، وكذاك جعفر هم تابعون أخذوا عن صحب محمد ، صلى عليه ربى ، والصحيح أنه صحابي جليل[2] ، وهو عمانى مرضى وله فى الأثر العمانى أقوال وهو من المعتمد عليهم ، لأنه عرف بالفضل وشهر بالعدل وتولاه حملة العلم الذين هم الحجة بعد الشيخين أبي الشعثاء وأبي عبيدة رضى الله عنهما ، وهو كما قلنا أحد شيوخ أبي عبيدة وعنه أخذ الكثير وهو من أجلة رجال المسلمين فى الصدر الأول رحمه الله ورضى عنه .

وفى حاشية القواعد[١] صحار العبدى من أعلام الإســلام فى القرن الأول ، كـان فى العلم غايـة وممن يدعو إلى الله على بصيرة ، ويلده فى العقائد طويلة ، أخذ العلم عن جابر بن زيد وكان شيخاً لأبى عبيدة مسلم الإمام الثانى للمذهب الأباضى .

قال أبو سفيان[٤] وأكثر ما حمل أبو عبيدة عن جعفر بن السماك وصحار العبدى وكانا من أئمة المسلمين وقادتهم .

الرابع كعب بن برشة الطاحى[1]

كان كعب بن برشة العمانى رحمه الله ممن يحسن اللغات الفارسية ، ولما شاع خبر النبى بعمان وأسلم أهل عمان بدعوة النبى عليه الصلاة والسلام بواسطة مندوبه عمرو بن العاص السهمى إلى جيفر وعبد ، وأنهما لما أسلما أرسلا إلى الفرس الباقين فى صحار بمدينة دستجرد إما أن يدخلوا فى هذا الدين وإما أن يرتحلوا من البلاد ، وإما أن يستعدوا للحرب ، فأراد رئيسهم مشافهة الملك فى فارس لهذا الصدد . فقال لهم الملك : انظر رجلا عربيا فارسيا ، أى يحسن الفارسية كما يحسن العربية فيما يتحمله من الطرفين ، أمينا فى نفسه على مايتحمل فيؤديه بأمانة ، فوقعت خبرتهم على كعب المذكور فأرسلوه إلى الملك بفارس ، فأرسله الملك إلى المدينة ليتعرف خبر هذا النبى . فجاء المدينة فرأى النبى صلى الله عليه وآله وسلم وعلم الصفات التى تذكر فى النبى الذى يبعث آخر الزمان ، فأسلم كعب المذكور على يديه ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ورجع مسلماً فأخبر الفرس بصحيح خبر النبى عليه الصلاة والسلام ، وأنه نبى من غير شك فى نبوته ، وقد أسلم على يديه وبنو طاحية من الأزد من طاحية بن سود أو أسود بن الحجر بن عمران بن عمرو بن عامر ماء السماء ، وقد وضعت نسبهم فى رعاية الأحساب فهو أزدى عمانى ، كان عمدة ثقة فى الدين من الرجال المعدودين والأبطال الذين لا تقتحمهم العيون ، ورجال عمان هذا غالبهم لاسيما فى ذلك العهد .

الخامس أبو شداد الذمارى (١)

كان أبو شـــداد رجلا عمانياً يأتى ذماراً من أرض اليمن ، إذ كان الاتصال بين عمان واليمن مفتوح الأبواب ، وبطبيعة الحال كانت عمان يمانية حساً ومعنى منذ عهد التاريخ ، وكان أبو شداد من رجال الإسلام ، أسلم على يد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحسن إسلامه . ذكر فى الاستيعاب فى عداد الأصحاب وهو عمانى وإن رام (١) بعضهم يدفعه عن عمان ، فكم راموا دفع رجال أجلاء عن عمان مع أنهم من عمان حسداً من عند أنفسهم ، وتشبثوا بمثل ما هو أوهن من بيت العنكبوت ،وهو قول صاحب الاستيعاب (١) حيث قال أبو شـــداد الذمارى العمانى سكن عمان . قال الذى ساءه أن يكون الرجل من عمان لعله من اليمن فسكن عمان ، قلت ما الذى كلف هذا المتنطع أن يرد ما لا يعلم بل عليه أولا أن يعلم ، ثم يقول بعد ذلك ما شاء عن علم :

ولقد ردّ كثير من حسَدة عمان كل شرف لعمان وهموا بما لم ينالوا ، ولكن القضايا أصبحت تلقمهم الحجر الخشن ، وظلوا ينادون بأهل عمان الذين كانوا بالأمس ينادون أنهم ليسوا من عمان ، وأصبح التاريخ العمانى يفد إلى عمان من عدة أمم ،وذكروا لعمان لم يعلم به العمانيون أنه من عمان والحمد لله . اهـ

الحلقة الثانية

حلقة التابعين رحمهم الله

لا يخفى أن حلقة التابعين من رجال الدين العمانيين يدخل فيها الكثيرون وفى مقدمتهم الإمام الأكبر والحبر الأنور أبو الشعثاء جابر بن زيد رحمه الله ورضى عنه ، كان إمام التابعين وسيد العلماء العمانيين الذى عرفه الموافق والمخالف ، واعتمد عليه كل من عرفه من أهل العلم ، وقد وضعنا ترجمته فى ما مضى من كتبنا : « كالعرى الوثيقة » [١] وإزالة الوعثاء عن أتباع أبى الشعثاء » [٢] وأصدق المناهج وغيرها » [٣] .

وقد عرفه الخاص والعام فلا نعيد فيه الكلام بأكثر مما مضى ، وفيه الغنية إن شاء الله ، وهو شيخ أبى عبيدة مسلم [٤] الإمام الثانى من أئمة الأباضية ، الذى أخلف أبا الشعثاء فى درجته ، فكان مرجع المسلمين وشيخ الربيع بن حبيب [٣] رحمه الله ، راوى المسند الصحيح الذى شهد بصحته أهل الخبرة بعلم الحديث ، وشيخ ضمام بن السائب الأزدى العمانى [٤] ، ومن التابعين ملك عمان عبد بن الجلندى ، والركب الذى قدم معه على أبى بكر الصديق خليفة رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم .

ولا شك أن أهل عمان تتابعوا على حضيرة الخلافة وكثر واردهم على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

ومن مشاهير التابعين من أهل عمان : كعب بن سوار الكندى العمانى [٥] الذى ولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه قضاء البصرة فى خبر طريف من طرف الأدب ، لا يسع المقام لإيراده ، وقد عرفه أهل [٦]

الأدب كان له معه من بدائع الاستخراج الوعى ، وكان أول من قدم البصرة من أهل عمان بعد تمصيرها :

ومن التابعين من أهل عمان : جعفر بن جُشم العتكى[1] ، وأبو صفرة سارق ابن ظالم الأزدى[2] ، ومن التابعين من أهل عمان بيرح بن أسد[3] الذى أدخله عمر على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبى بكر رضى الله عنه ، وقال هذا من أهل الأرض التى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فيها «إنى لأعلم أرضا يقال لها عمــان ينضح البحر بناحيتها ؛ لو أتاهم رسولى ما رموه بسهم ولا حجر»[4]

ومن التابعين ، إمام أهل الحديث والمقدم عليهم بالسبق : أبو عمرو الربيع بن حبيب بن عمرو ، وقد وضعنا ترجمته فى عدة كتبنا وهو من تلامذة أبى عبيدة رضى الله عنه ، كما أنه من تلامذة جابر بن زيد ، وكذلك أبوه حبيب بن عمرو[5] من تلامذة أبى الشعثاء ، إلا أن الربيع اشتهر بالمسند .

ومن التابعين : ضمام بن السائب[6] رضى الله عنه ؛ وكان من ندب الأكبر من الازد من أهل عمان ، كان أحد رواة جابر بن زيد رحمه الله ، أخذ عنه وقد أخذ الربيع أكثر ما أخذ عن ضمام ، ولكن روايته عن ضمام تولاها أبو صفرة عبد الملك بن صفرة[7] ، فلم يوفق الله لتدوينها ونشرها لينتفع بها الناس ، وبقيت مبعثرة فى آثار المسلمين ، ومن الممكن تتبعها وجمعها فى كتاب مستقل ، وقد اخبرنا الجماعة إخواننا من أهل المغرب أنها موجودة عند أحد شيوخ العلم هناك ، فحرضناهم على نشرها بالطبع ليعم نفعها ، فعسى أن يقدر الله وخدمة العلم من الجهاد الأكبر فى نظر العلماء ، وضمام هــذا من فحول العلماء الميامين الذين يعول الناس على منقولهم ويثقون أيضاً بمعقولهم ، إذ كانوا السلف الذى لم تشبه شائبة سوء ،

ولم يؤثر عنهم غير المرضى منهم فى الدين ، فليس ضمام بأقل من الربيع ، إلا أن الربيع كتب له التوفيق فيما جمع عن مشايخه ، ولم يكن ذلك لضمام الهمام العالم ، وكذلك جعفر بن السماك[1] رحمه الله من التابعين المرضيين من أهل عمان ، وممن يعتمد فى العلم ويؤخذ عنـــه فى المذاهب وأشار إليه الإمام السالمى رحمه الله فى مقدمة شرح المسند[1] ، وفى الجوهر[2] أيضاً حيث يقول كذا صحار وكذاك جعفر إلخ رحمهم الله ورضى عنهم .

وإنما ذكرنا مشاهيرهم الذين لهم اليد الطولى فى العلم والعمل ، وتركنا غيرهم ممن هم دونهم فى المنزلة وهم كثيرون يحتاجون إلى كتاب خاص يحوى ذكرهم ويجمع أخبارهم وعسى أن يوفق الله لذلك فى آونة أخرى وهو الموفق للخير وحده .

الحلقة الثالثة

فى مشاهير أهل عمان فى الصدر الأول

اعلم أن مشاهير أهل عمان فى الصدر الأول كثيرون، لكننا نذكر فى هذا الكتاب أشهر مشاهيرهم طلباً للاختصار ، فإن لكل وقت هواية ، وهواية وقتنا الكتب المختصرة ، والتى يسمونها كتاب جيب ، ومجاراة الوقت أمر مطلوب ، لأن المؤلف لايؤلف لنفسه ، وإنما يؤلف لأهل وقته فيراعى رغبتهم ويتطلب محبتهم فيما يرغبهم ، حتى لا يسأم القارئ ولا يضجر المطالع ، ولذلك راجت فى وقتنا المجلات لصغر حجمها ويسر مؤونتها ، وعليه فنقول :

من أشهر مشاهير أهل عمان فى الصدر الأول : الخليل بن أحمد الفراهيدى[1] الذى عرف فى الأمة بشهرة عالية فى علاميته وزهده وأمانته ، وهو الذى عرفه أهل الأدب بأنواعه ، وساموا له ورضوا به حكماً عند اختلافهم ، ونزلوا إلى قوله فيما يقول ، وإلى فعله فيما يفعل ، وقد وضع ابن خلكان[2] له ترجمة حافلة ذكر فيها خصاله وأعماله وزهده وورعه ، وقال فيه الإمام السالمى رحمه الله : ومن أهل عمان الخليل بن أحمد الفراهيدى ، وكان من أهل ودام[3] من الباطنة ، خرج إلى البصرة وأقام بها فنسب إليها ، وهو صاحب كتاب العين[4] الذى هو إمام الكتب فى اللغة ، وماسبقه إلى تأليفه أحد ، وإليه يتحاكم أهل العلم والأدب فيما يختلفون فيه من اللغة فيرضون بحكمه ويسلمون ، وهو صاحب النحو وإليه ينسب ، وهو أول من بوبه وأوضحه ورتبه وشرحه ، وهو شيخ سيبويه[5] فى النحو .

وكان قد أخذ النحو عن أبى الأسود الدؤلى[6] واضع هذا الفن ، وهو صاحب العروض والقوافى ، فإنه استخرجه ابتداءاً ، ولم يكن له قبله

الخليل بن أحمد وجود ، وقال ابن خلكان : لم تخرج دولة الإسلام أعجب من الخليل بن أحمد الذى أخرج علم العروض من وقع مطرقة على طست ، وهو واضع النقط فى الأحرف ولم تكن قبل منقوطة ، وهو واضع الشكل ، أى حركات الإعراب ، قال الإمام : والناس تبع له وله فضيلة السبق فى هذا المضمار والتقدم إليه ، قلت ولو لم يكن للعمانيين غيره لكان كافى فى الافتخار ، ومن أراد استقصاء ترجمته فعليه بابن خلكان وهو شيخ أبى الليث السمرقندى.

ومن أشهر مشاهير أهل عمان فى العلم والأدب : أبو بكر أحمد بن محمد ابن أبى الحسن بن دريد الأزدى العمانى ، من أهل قدفع من شمال عمان ، وهو صاحب كتاب الجمهرة وشهرته تغنى عن ذكره ، وقد وصفه من عرفه بأنه من أبدع ما ألف فى الأدب ، ومن أروع ماعرف فى الفن ، فهو الكتاب المعتبر فى فنه والمعول عليه عند أهله ، وله مصنفات عدة ذكرها مؤرخو حياته وواضعو ترجمته لانطيل بذكرها ، فإن الرجل أشهر من نار على علم ، ولا نلتفت إلى مايرميه به حاسدوه ، ومايقوله فيه أعداؤه الذين لم يدركوا شأوه ، قال الإمام : وهو الخطيب المذكور والشاعر المشهور والفصيح الذى يقف عند كلامه البلغاء ، ويعجز عن آدابه الأدباء ، ويستعير منه الفصحاء ، ويستعين بكلامه الخطباء وهو خطيب فى شعره ومصقع فى خطبه ، وقدوة فى أدبه ، وحكيم فى نثره ومجيد فى شعره لازيادة عليه فى فنون العلم والأدب .

ومن أشهر مشاهير علماء أهل عمان : أبو الحر على بن الحصين العنبرى(١)

---

(١) أبو الحر على بن الحصين العنبرى رحمه الله كان من أهل مكة وكان من علماء الإباضية المخلصين ولم يكن عمانيا وأن القول بأنه عمانى وقع سهواً، من الناسخ أو من الناقل .

أحد العلماء الأعلام الذين لهم الشرف والشأن بين أهل عمان ، وكان رحمه الله من الشراة من أصحاب عبد الله بن يحيي الكندى، وقُتل فى مكة، تحت راية أبى حمزة الشارى الذى (١) ... التاريخ رحمهم الله .

ومن مشاهير أهل عمان فى الصدر الأول : أبو عبيدة الصغير عبد الله ابن القاسم من علماء القرن الثانى ومن تلاميذ الربيع ، لقب بأبى عبيدة الصغير تميزا بينه وبين أبى عبيدة مسلم ، كان ممن حاز قصب السبق فى حلبة الرهان علما وعملا ، وخاض فى بحور الزهد والتقوى شاباً وكهلا ، وكانت إقامته بمكة ، كان عزباً ثم تزوج غنية موسرة ، وكان بمكة حين مات أبو جعفر المنصور فأغلقت الأبواب أى أبواب المسجد لأخذ البيعة .

وكان أبو عبيدة والفضل بن حندب ووائل وعلى الحضرمى معهم فلطف الله بهم فنجوا ، فقيل لأبى عبيدة : ماذا ترى لو أخذت عليك البيعة ؟ فقال : تذهب والله نفسى قبل أن تؤخذ . ذلك لشدة ورعه وزهده وعدم هوادته فى الحق .

ومنهم : حيان الأعرج من علماء القرن الأول ، وكان كما قال الشماخى فيه : من العلماء الراسخين ومن أهل التقوى والدين ، ومن أكبر من صحب جابر بن زيد وأخذ عنه ، فهو أكبر من أبى عبيدة مسلم سنا ، وكان داعيا إلى الله آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، ممن يميل فى فتواه إلى التسهيل والتيسير ، وينكر على أبى عبيدة ، تشدده ، وكثيراً ما يقول : والقد أشقانا الله فى ديننا إن كان الأمر كما يقول أبو عبيدة ، يقول ذلك

(١) هنا بياض فى الأصل

تبرماً من تشدد أبى عبيدة ولكل واحد من الشيخين نظره فيما اتجه له رحمهم الله :

ومنهم : ابن عبد العزيز هو عبد الله بن عبد العزيز[1] من علماء القرن الثانى من الذين تخرجوا على أبى عبيدة ، وجمعته والربيع حلقة درسه ، وتلاميذ أبى عبيدة على رأسهم الربيع ، وهو من أكبر رجال العلم ومن أجلهم شأناً فيه :

ومنهم أبو نوح صالح الدهان[1] أحد علماء القرن الأول ، كان شديد الورع غزير العلم ممن أدرك أهل العلم وأخذ عنهم ، أخذ عن جابر ابن زيد وغيره وكان أحد شيوخ أبى عبيدة مسلم ، أخذ عنه أكثر مما أخذ عن جابر ، ومع ذلك فهو يحترم أبا عبيدة ويفتى هذا بمحضره ، وإن ظل ينكر عليه تشدده ، كما كان ينكر عليه رفيقه حيان الأعرج ، كان أبو نوح كثيراً مايقول ، إذا بلغه عن أبى عبيدة تشدداً : ألم أنهكم يامعشر الفتيان أن تسألونى إذا كان أبو عبيدة حاضراً ، وهكذا نجد من بين من تلقى عن جابر من يميل إلى التيسير كأبى نوح وضمام وحيان ومن يحتج إلى التحرى وحمل الناس على الأحوط كأبى عبيدة والربيع ، وقد أخرج هذا أدمغة عامرة بعلماء مجتهدين ، حملوا الشريعة وأرسلوا أنوارها إلى أبعاد سحيقة ، فأضاءوا شرقا وغربا رحمهم الله ورضى عنهم .

ومنهم : أبو أيوب وائل بن أيوب الحضرمى[1] من خريجى مدرسة الربيع ابن حبيب عالم حضرموت ، فى حين تزخر حضرموت بعلماء الأباضية ، قال وائل المذكور متحدثاً عنهم : أدركت بحضرموت رجالا أن كان الرجل منهم لو ولى على الدنيا كلها لاحتملها فى عقله وحلمه وعلمه وورعه ، كأن أبو عبيدة الصغير لجلالة قدره وعلو كعبه فى العلم إذا سئل ربما أجاب : عليكم بوائل فإنه أقرب عهدا بالربيع .

ومن علماء المسلمين في الصدر الأول : المثنى بن معروف[1] من علماء الأباضية ، كان تقياً فاضلا داعيا إلى الله ، أخذ العلم عن أبي عبيدة وصاحب الربيع ، وكان ذا منزلة سامية عند أبي عبيدة ، لذلك ارتضاه أن يصحب الرابيع في موسم الحج ، وإن راجعه المثنى في ذلك قائلا : ما كنت لأفعل أخرج مع الربيع ، والربيع غاية في فضله وسنه وعلمه ، فما أشير عليكم غلاماً حدثا مثلي ، وفي الربيع كفاية. فازداد في نفس أبي عبيدة محبة بقوله هذا وازداد عندهم رضاً ، فخرج الربيع وحده .

ومن علماء المسلمين : شعيب بن معروف[2] أخو المثنى المذكور ، من العلماء الذين أخذوا العلم عن أبي عبيدة وخالفوا الربيع في مسائل معينة كأبي المؤرج[3] وابن عبد العزيز وحاتم بن منصور[4] وسهيل بن صالح[5] ، فرأى أبو عبيدة أن الحق مع الربيع ، ثم رجعوا عن خلافهم ثم عادوا إلى أقوالهم بعد موت الربيع ، والحقيقة أن الأمور الاجتهادية كل يرى فيها رأيه وليس له أن يقلد غيره ولا يستنكر ذلك في الدين ، وليس لأحد أن يتبرم من أحد يخالفه في الأمور الاجتهادية ، فضلا عن أن يتبرأ أو يتأثر إن كان القصد لله ، وعلى هذا إجماع الأمة وليس لأحد أن ينقض اجتهاد مجتهد مثله في الأمور الاجتهادية كما هو مذهب السلف رحمهم الله .

ومن أشهر مشاهير أهل عمان في الصدر الأول : مصقلة بن الرقبة[6] الذي اعترف به أهل العلم والأدب ورواة الآثار والأخبار معاً في العالم الإسلامي ، وكانت شهرة مصقلة المذكور بلغت مسامع أبعد العلماء الأجلاء والقادة الزعماء ، كما تحدث عنه أحد علماء الإسلام ؛ وهو الجاحظ[7] أكبر من ألف في الأدب وذكر أخبار علماء العرب ، وروى أخبار أهل العلم بما لا مزيد

(١١)

عليه ، كان مصقلة هذا يخطب الناس قائماً وقاعداً ومجيبا وراداً ومنافسا ومبتدئا ، فهو العلم الذى يراه أهل العقول من بعيد .

وولده كرب بن مصقلة[1] الذى يصح أن يجرى فيه المثل الذى يقول : الثمر دليل على الشجر ، أو المثل الذى يقول : لاتلد الحية إلا حية ، وهما نزاريان ولهما خطبتا العجوز فى الجاهلية والعذراء فى الإسلام ، وشهرتهما تغنى عن ذكرهما ، قال أبو عبيدة الصغير : ما سمعنا مثلهما فى الإسلام .

ومن أشهر مشاهير أهل عمان : صعصعة بن صوحان بن زيد[2] الذى تحدث التاريخ عنه بمالا مزيد عليه أيضا ، وكذلك أخوه[3] فهما فرسا رهان فى هذا الميدان عند أهل العلم والبيان ولله درهما :

ومن أشهر مشاهير أهل عمان فى الصدر الأول : مرة بن البليد[4] ، وهو من أزد عمان كان خطيباً يسيل سيل الغيث وينطلق انطلاق الجواد ، لايتعقد ولا يتردد ، قال الإمام عنه لم يكن أجود فى الأرض منه ارتجالا وبديهة ، ولا أعجب فكراً وتحبيراً منه اهـ . يتناول المواضيع فيشفيها ، وينصب على القضايا فيقدح النار ويوريها ، ويثير العاطفة ويطفيها ، وكان رسول المهلب[5] إلى الحجاج[6] وهو عين المرسل ، فلما نزل بالحجاج ألقى إليه ما عَجِبَ منه وأجله ووقره .

ومن أشهر مشاهير أهل عمان : عرفجة بن هزيمة البارقى[7] الذى كان أكبر قائد فى الإسلام ، أرسله أبو بكر رضى الله عنه إلى مهرة[8] وأمره بعد نهاية عمله من مهرة أن يعطف على جيفر بعمان ليكون قوة له على من خالفه فيها ، وكان عرفجة من مقاديم الرجال فى أحوال شتى ذكرها التاريخ ،

ومن أشهر مشاهير أهل عمان : سيحان بن صوحان للذى ذكر أخباره أهل العلم فى السير .

ومن اشهر مشاهير أهل عمان فى الصدر الأول : أبو صفرة ظالم بن سارف الذى حدث الرواة عنه أحاديث لها أهميتها ابن صبيخ بن كندى ابن عمرو بن عدى من صميم الأزد ، وهو الذى كان للدولة الأموية من أعظم قوادها ومن أكبر دهاتها وأعظم أركانها .

ومن أشهر مشاهير أهل عمان : المهلب بن أبى صفرة المذكور المعروف بحزمه وشجاعته ، وهو الذى استنقذ البصرة من أنيب الأزارقة وحطمهم تحطيما قد عرفه الخاص والعام ، وقد رد الأزارقة على أعقابهم راغمين لم ينالوا خيراً ، وكانت له ذرية أكثر من ثلاثين رجلا يحملون السلاح معه ، ثم صاروا بعده سادة وقادة وهم الأزد يعرفهم كل أحد ، وتاريخهم مملوء ببطولاتهم ، وهم من أنجاب الرجال .

ومن أشهر مشاهير أهل عمان فى الصدر الأول : أبو العباس صاحب الكامل ، إمام فى الأدب وقدوة فى العلم ، وكتابه الكامل معروف مشهور مقدم على غيره من كتب الأدب ، وفيه جواهر ثمينة من العلم لاينبغى أن يجهلها أحد ، وشهرة أبى العباس العلمية غير خافية وكيف يخفى البدر فى الظلام وهذا كامله الذى أكمله يكفى دليلا عليه .

الحلقة الرابعة
فى حملة للعلم إلى الأمة

لا يخفى أن حماة العلم إلى الأمة هم الذين هدى الله بهم الأمة وأبان لها بهم معالم الرشد ، وأوضح بهم مناهج العدل ، وكشف بهم غياهب الجهل ، وأوضح بهم مناهج الإسلام ، وجعلهم الله حجته على عباده وأرشد بهم من كتب الله له الخير فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، ولقد قاموا بواجبهم الذى احتضنوه لأمتهم وحملوه إلى قومهم ، حتى أفرغوه فى قوالب الصفا ، ووضعوه فى معادن الوفا ، فجزاهم الله على ذلك خير ما جزى عبداً صالحاً فى أمته ، وسنفرد ذكر كل واحد منهم فى محـــل للتعريف بهم بكلمات وجيزة تحمل الاختصار فى طياتها ، فإنا طالما ذكرناهم فى المناسبات اللائقة بهم فنقول و خير الكلام ماقل ودل .

اولهم : الإمام بشير بن المنذر النزوانى[1]

من أهل عقر نزوى كان يسمى الشيخ الكبير ، وهو المراد عند الإطلاق فى الأثر العمانى ، كان من بنى نافع يتصل نسبه إلى سامة بن لؤى بن غالب القرشى كما ذكرناه فى الإسعاف والعنوان ، وفى رعاية الأحساب ، وهو جد بنى زياد ، الموجودين بعمان ، وقد ضربت إليه أكباد الإبل فى أيامه لطلب العلم ، كان يروى فتاويه عن الربيع عن أشياخه أبى عبيدة وجابر ابن زيد وأبى نوح ، عاش على ذلك حتى توفاه الله إلى رحمته ولم نجد تاريخ وفاته تحقيقاً كزملائه أيضاً .

الثانى : منير بن النير الجعلانى[1]

الإمام الثانى هو منير بن النير الجعلانى المعروف بالريامى الذى ينتحاه بن جعلان[1] المسارير ، يقولون هو منا ، والرواجح يقولون هو منا ولم يكن من الفئتين ، بل هو من بنى حضرمى بن ريام ، عمّر زمناً طويلا حتى سقط حاجباه وضاعت رجلاه وبقى لاينتفع إلا برأيه فأشبه دريد بن الصمة[٤] إلا أن ذلك جاهلى وهذا مسلم ، كان غاية فى العلم ونهاية فى معرفة الحلال والحرام ، علامة جليل فهامة نبيل ، أنار الله به للأمة السبيل ، وأوضح به للسالكين الدليل رحمه الله ، توفى شهيداً فى وقعة دما[٢] من الباطنة تحت راية الإمام عزان بن تميم[٣] فى حروب ابن بور[٤] لعمان رحمه الله .

الثالث : موسى بن أبى جابر الأذكانى[1]

كان الإمام موسى بن أبي جابر أحد فحول العلم[*] وأساطير الشريعة ، حرف بأعماله الزكية وفضائله العلية ، أصبح فى الطرف الأزكوى مرجع المسلمين وعمدة المؤمنين ، أحيا الله به قلوباً وأمات به بدعا وأقام به للحق أعمدة مكينة فى عمان، فهو العلم المفرد والإمام الأوحد فى أقوامه ، رحمه الله . كان من بنى ضبة يتصل نسبه إلى سامة بن لوى بن غالب ، كان أحد أركان دولة الإمام وارث بن كعب[2] وهو جد موسى بن على[3] لأمه .

الرابع : الإمام محبوب بن الرحيل[1]

كان محبوب بن الرحيل المخزومي القرشي ابن سيف بن هبيرة أحد أقطاب العلم ، ولم يكن عمانيا ولكنه جاء مع زملائه بصفة زائر فنزل صحار أيام رقيها ، وفي عهد زهرتها ، فاستوطنها وألقى رحله بها ، إذ سره حال أهلها إذ كانوا أهل أخلاق وأصحاب أرزاق ، وهي كرمى عمان إذ ذاك ، فشاءت الأقدار أن يعيش بها وذريته وما بلد الإنسان غير الموافق ، جاء هو والربيع ولعله بترغيب الربيع له في عمان ، ولله تلك الأيام التي يكون من أهلها أمثال الربيع ومحبوب بن الرحيل رحمهما الله ورضي عنهما ، إنها لأيام عزيزة يتمناها أهل الله ، ولكن قدر الله وقضاؤه لهما السبق على كل شيء .

الخامس: محمد بن المعلى الكندى (١)

كان الشيخ محمد بن المعلى من رجال عمان الأبطال ومن أهل العلم ، إذ كان أحد حملته ولله ما حمل ولله الحامل ، فإن لله فى خلقه ظنائن (٢) يختصهم برحمته ويمدهم بعنايته وفضله ، ويصطفيهم من خلقه ، كان ابن المعلى يصلح لأن يكون إماماً ، ولكنه خاف القصور فأبى وامتنع من القبول ، هؤلاء الخمسة الذين حملوا العلم إلى عمان كانوا مصابيحها النيرة وأعمدتها المعتبرة ، وهداتها للحق ودعاتها إلى الله ، وقوام أمرها بلا اشتباه ، كانوا غراس أبى عبيدة رضى الله عنه البطل الذى له الميزان الراجح والسبيل الواضح ، بهم انتشر العلم فى عمان وبنورهم اهتدى الناس للحق .

أما حملة العلم إلى المغرب فإليك البيان عنهم أيها القارىء الكريم ، فإنهم كإخوانهم العمانيين إذ الكل وردوا موردا واحداً ، وكرعوا (٣) حياض الشريعة من الأعلام الفطاحل ، فقاموا بواجبهم وأدوا حقوق الله التى كلفهم بها ، وصارعوا الباطل بالحق وأقاموا معالم الدين واضحة رحمهم الله ورضى عنهم . وكانوا أيضا خمسة وهم : الإمام أبو الخطاب ، والإمام عبد الرحمن بن رستم ، وعاصم السدراتى ، وإسماعيل بن درار الغدامسى ، وأبو داود القبلى النفزاوى ، هؤلاء الخمسة الذين حملوا العلم عن أبى عبيدة رضى الله عنهم إلى المغرب كما حمل عنه أولئك الخمسة العمانيون إلى المشرق ، فانتشر بهم العلم وظهر بهم الحق ، وعلت بهم راية المسلمين وانتهى بهم دور الجور ،

وظهر بهم الحق : وعلت بهم راية المسلمين وانتهى بهم دور الجور ، وقامت بهم أعلام الهدى فى هذه الأصقاع ، وأمد الله بهم المسلمين مدداً صالحا لا يزال جارياً متواصل الفضائل . وسنفرد لكل واحد منهم محلا غير متسع المجال ولكن بما يناسب فى الحال من المقال ، والله المسئول التوفيق وله الحمد على كل حال فنقول :

الأول : أبو الخطاب المعافرى (١)

كان أبو الخطاب رضى الله عنه من تلامــذة أبى عبيدة العلم الذى يراه الناس من بعيد كما يراه الناس من قريب ؛ علم من أعلام الدين وسيد من سادات المسلمين ، لم تكن همته مقصورة على تلقين الطلبة دينهم أو مبادئه أو أصوله وفروعه فحسب ، لكنه كان داعيــة قوياً لإقامة موازين الحق فى الأمــة ، والاهتمام بأمرها فى المكره والمنشط ، وأن العلم لم يطلب لذاته وإنما يطلب ليعمل به ، وأن من العمل به أن يقوم رجال الدين بالذب عنه ولرد أهل الباطل عن باطلهم ، وللانتصاف من أهل الفساد فى بلاد الله ، ولإقامة حدود الله عز وجل ، وإن ذلك لا يتم إلا بإمام يتجرد لله مع إخوانه الذين يناصرونه ، فإذا وقع هذا تقدم الإمام رغم أعدائه ، وإلا كان ضعيفاً مستضعفاً تحت وطأة الظلم والفساد . فلما قرت هذه المعانى فى قلوب أولئك التلامذة الكرام الذين ساقتهم الأقدار إلى حيطة البطل الضرير ، ولمــا خرجوا عنه خرجوا بنشاط ضخم ، ولمــا قروا فى أرضهم قاموا بما فى وسعهم ونظروا إلى أبى الخطاب السيد الهمام الصالح لهذا الأمر ، فاعتمدوه من غير أن يعلم عن قصدهم شيئاً ، ولما تم اجتماعهم قاموا إلى أبى الخطاب قائلين له مد يدك لنبايعك بالإمامة ، فلم يشعر إلا والقوم محيطون به لهذا الأمر ، فلم ير أحداً إلا وهو يقول مد يدك

---

(١) كان الإمام أبو الخطاب المعافرى من أهل اليمن جاء لطلب العلم من أبى عبيدة رضى الله عنهما .

لنبايعك ، فلم ير بداً من الامتثال ، فبايعوه على أن يقيم فيهم كتاب الله ويحكم فيهم بشريعة الله عز وجل ، ويأخذ بأيديهم إلى طاعة الله ، ليس لشيء آخر أبداً إلا أن يسير بهم سيرة الخلفاء الراشدين ، ويسلك بهم مسالك المسلمين ، ويحيي بهم ما أميت من أمر الدين ، وأعلموه بوصية الإمام أبي عبيدة رضى الله عنه ، وهى إما الإمامة وإما القتل ، فقبل الرجل إذ لم ير بداً من الأمر المطلوب ، فسار فيهم مسير الشمس فى السماء ، وقام بواجبه الذى تحمله لله وفى الله ، والله الهادى للحق بإذنه حتى لقى الله عز وجل .

الثانى: الإمام عبد الرحمن بن رستم[1]

كان عبد الرحمن بن رستم أحد الرجال الخمسة الذين تلمذوا للسيد أبى عبيدة البطل العليم ؛ والولى الكريم الذى جعله الله العهدة فى الحق والحجة فى الدين ، وعبد الرحمن الذى أسس تيهرت[2] التى سميت عراق المغرب ، كان علامة فحلا فى مقدمة رجال العلم بطلا بين أبطال الإسلام ، تنورت نفسه الطاهرة بأنوار الهدى ، ولا يخفى عليك أنا لا نريد هنا أن نذكر واحداً من حملة العلم ، وإنما نريد أن نعرف بهم ، وأما التأريخ لحوادث هؤلاء يستدعى فراغاً واسعاً فنكل ذلك إلى المؤرخين المعنيين بشئون التاريخ عنهم والله ولى كل شىء .

الثالث من حملة العلم للمغرب : عاصم السدراتى [1]

كان عاصم السدراتى أحد حملة العلم عن أبى عبيدة الهمام اليقظ الذى يهمه أمر الدين ، ويدعو إلى نصر الإسلام والمسلمين ، الذى يعلم يقيناً أن حياة الدين لا تكون إلا بالقائد المؤمن الذى يخاف الله فى سره وعلانيته ، الذى لا تستعبده الشهوة ولا تتولاه الإمارة بالسوء مهما كان ، كل همته إعلاء منار العدل وإقامة موازين العدالة بين الناس ، وإجراء أحكام الله فى مجراها الطبيعى على الكبير والصغير والشريف والوضيع ، هان الخطب أو اشتد ، وكان رحمه الله من أقوى رجال أبى الخطاب رحمه الله ، ولما حاصر الإمام المذكور القيروان [1] كان عاصم معه ، فمرض أثناء الحصار مرضاً شديداً ، وكان جبهة العسكر وأنجدهم وأشدهم شوكة على أهل القيروان ، وكان اشتهى القثاء [2] فشاع عنه اشتهاؤه القثاء ، فبلغ أهل القيروان فبعثوا إليه ببائع قثاء ، وسموا له واحدة وأمروه أن يبيعها له ، فمضى الخبيث إلى نحو عاصم ينادى ببيع القثاء ودخل العسكر ، وإذا بتلك الحبة هى خير ما عنده من القثاء ، فباعها من عاصم بواسطة أصحابه ، فأكلها فثار به السم حتى قتله ، وكان البائع قد هرب من القيروان فمات عاصم رحمه الله شهيداً ، واستبشر العدو بموت عاصم وقاموا ينادون ساخرين أين عاصم يا بربر ؟ ! وكان ذلك نهاية أمر هذا البطل العالم الذى لا يخاف فى الله لومة لائم ، فلله ذلك العلم الذى عاش بالمشرق خمس سنين ، طالب علم مهاجراً من وطنه ، ثم كان آخر عمره يموت بالسم بين يدى إمام المسلمين رحمه الله ورضى عنه .

الرابع: إسماعيل بن درار الغدامسي(١)

إسماعيل بن درار الغدامسي العلامة الواعي الذى لم يزل مشغوفا بحب العلم باقتنائه و اقتناص شوارده، فإنه قضى مع الإمام أبي عبيدة رضى الله عنه خمس سنين جاداً مجدا فى طلبه، لا يهمه شىء من حياته إلا إدراك ما طلبه ليلا ونهاراً ليكون القدوة فى قومه، والإمام فى أمته. واستمر به الحال على ذلك حتى الوقت الذى همّ فيه بالرحيل إلى وطنه، وشيعه شيخه رحمه الله ورضى عنه، فلما حانت ساعة الوداع سأله فيها عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحكام ليحملها فى عيبة عقله المتسع كزاد الطريق، وشيخه مغرم به لما يراه من نشاطه فى طلب العلم، فأفتاه رحمه الله بحب وإخلاص ومودة واختصاص، ثم قال له كالمداعب له: أتريد أن تكون قاضيا يا ابن درار؟ فأجابه بقوله: أرأيت إن ابتليت بذلك وذلك آخر شىء افترقا عليه، وقيل آخر ما قال له بماذا تأمرنى يرحمك الله؟ ثم توجهوا إلى المغرب فلما وصلوا عرضوا الإمامة على عبد الرحمن فاعتذر متعللا بأمانات كانت عنده للناس، فقبلوا عذره وأرادوا تولية أبى الخطاب رحمه الله فاعتذر بأعذار لم يقبلوها منه، وكان شيخهم أبو عبيدة رحمه الله أوصاهم بأن يبايعوه فامتثلوا وصية الشيخ وعملوا برأيه السديد، وإنه لبصير بأحوال الرجال وخبير بمواقع الأعمال، ومن يصلح لها فى تلك الأحوال فإن لكل وقت سياسة ولكل زمان أعمال ولكل أعمال رجال، وما كل الرجال يحسن إدارة شئون الناس والقيام بها وهذا مما اتفقت عليه أهل العقول.

والعلامة الغدامسي من فحول الرجال الذين قل أن تسمح الأيام بأمثالهم أو يجود الدهر بأشكالهم، وحملة العلم هم خلفاء الله فى أرضه وهم حجته

(١)

على عباده ، فهم أشبه بالأنبياء لولا أن النبوة أمر خصيص من الله عز وجل وشرف يضعه فى أكمل محل ، والكمال لله وحده ، فلله در الغدامسى البطل الذى أقبل على قومه بنور العلم يضىء به حوالك الجهل ، ويهدى به كل من حاد أو ضل ، وشهرته فى بلاده شهرة البدر فى سمائه ، وهو جبل من جبال العلم والفهم والذكاء ، ومثل سام من أمثال الإخلاص والنزاهة والصفا والاهتمام بأمر الدين ، والاعتناء بأحوال الأمة وحجة فى الدين وعمدة للمسلمين ، يدعو إلى الحق لايبالى بسخط زعيم أو حنق أمة أو تبرم أعيان ، فإن الحق وإن كان غير مرضى فى أنفس أهل السوء من الناس .

وابن درار البطل المغربى من أفذاذ الرجال الذين يشار إليهم بالبنان كان بطلا بارزاً لايهاب ولايخشى إلا الله ، فإن الله عز وجل كلف أهل العلم بإقامة أعمدة الدين وقطع علائق الفساد ، أكبره أستاذه الجليل أبو عبيدة النبيل وأدنى مكانه حسا وعقلا ، والتفت إليه بكل ما لديه ما لديه من وسع حتى أنضج عقليته وقوى عزيمته وملأ ذهنه ووعيه من جواهر العلم الإسلامى الذى تعيش به حياة أمته ، ومن توفيق الله عز وجل لعبده أبى عبيدة السيد المجيد الذى ساق إليه من الرجال أفذاذا كابن درار الذى أطال ترجمته صاحب موكب التاريخ[1] ونحن نكتفى بذلك .

الخامس : ابو داود النفزاوى القبلى (١)

كان أبو داود النفزاوى القبلى أحد الأعلام الذين تلمذوا للإمام أبى عبيدة بالبصرة ، وكان مع زملائه طيلة تلك المدة التى أقاموها مع أبى عبيدة ذلك العيلم الذى جعله الله أكبر هادٍ إلى الحق وأصدق داع إليه فى ذلك العهد العصيب ، عهد ذلك الطاغية الذى ابتلى الله به الأمة ، وكان أبو داود فى الوعى والحفظ دون زملائه المذكورين قال له شيخه أبو عبيدة عند خروجهم عنه ومغادرتهم ، للبصرة إلى المغرب : لا تفت بما سمعت منى ولا ما لم تسمع ، بعدما قال لعبد الرحمن افت بما سمعت وما لم تسمع ، وقال لأبى الخطاب : افت بما سمعت ، وكان ذلك منه رحمه الله لأحوال يلاحظها فى تلامذته المذكورين ، فكان يحب للضعيف منهم السلامة ويحب لقوى الذاكرة التقدم فى الإرشاد ونشر الثقافة الإسلامية ، واستعمال الموهبة التى منّ الله على من شاء أن يستعملها فيما خلقت له .

ورأى أبا داود دون أصحابه وللشيخ فى تلامذته فراسة ناجحة كفراسة الوالد فى أولاده ، وناهيك بفراسة على بن أبى طالب فى أولاده وقد صدقت فراسته ، وما زال أبو داود بعد ذلك بمنزلة جليلة كما قال الإمام السالمى رحمه الله ، كان الإمام عبد الوهاب (٤) — مع جلالة قدره وعلو منزلته وكثرة علمه — إذا جلس بين

يدى أبى داود كالصبى أمــام المعلم ، ويكفى ذلك مقياســاً لمنزلة أبى داود ، فإن عبد الوهاب من أجلة العلماء عند المســلمين ، وهو إذا جلس بين يدى أبى داود يمثل جلوس الصبى بين يدى معلمه :

رحم الله أولئك الرجال ورضى عنهم فهم جمال تلك الأيام وزينتها بين ليالى الدهر طيلة الأعوام :

حملة العلم إلى اليمن

لا يخفى أن عبد الله بن يحيى الكندى[1] كان من أهل اليمن كما كان أبو الخطاب أيضاً من اليمن ، خرج كل منهما إلى البصرة لتلقى العلم من البطل الحر المخلص لله ولرسوله ، المجاهد فى الله والمجتهد فى دين الله ، الذى هو قطب دائرة العلماء أبو عبيدة مسلم الذى خوّله الله هدًى أحيا به أرواح الحق فى أقطار شتّى ، وأبان به معالم الدين فى نواح عديدة ، وكساه من لدنه وقاراً وأضفى عليه من ملابس الإيمان أوفاها ، وجعل توقيره فى قلوب أتباعه من نوع توقير الصحابة لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، لاسيما أن هذا كان فى وقت اضطهاد الجبابرة لأهل الحق ، فإن طغام بنى أمية جعلوا نصب أعينهم الضغط على أهل العلم الذين يحسون منهم النفور وعدم الرضا بأعمالهم ، وكان البادئ بذلك معاوية[2] الذى أرغم المسلمين على بيعة يزيد[3] ولده وهو المعروف الذى لا يحتاج أن نتحدث عنه ، وقد أرغم معاوية أخيار الصحابة على بيعة المذكور بالسيف المصلت على رءوسهم .

ثم جاء بنو العباس على أثر بنى أمية فسلكوا الخطة التى رسمها الأمويون قبلهم ، ثم زادوا وتشددوا على الناس وأذلوا عباد الله الذين ينكرون المنكر ولا يرضون بغير الحق ، فكان أبو عبيدة ذاك السيد البطل العظيم فى ملكوت الله عز وجل يلقى دروسه إلى تلامذته الخُصّيصين به الذين لا يشك فى إخلاصهم ولا يرتاب فى طاعتهم لله ، ولا يرتاب فى استجابتهم له ، يلقنهم قواعد الدين وروحه الصحيحة وجوهره النقى وخلاصته المقصودة بالذات ، ويفتح لهم سبل الأخذ على أيدى الفساق

(١)

ويرشدهم إلى وجهة السير إلى الله ، ويضع لهم الخطط التى يراها تلائم الوقت ، ويبرهن لهم على ذلك بالدليل الذى تعشقه نفوسهم الحرة ، وكان كما قلنا إن عبد الله بن يحيى كان من تلامذته ، وعندما خرج الخمسة المغاربة كإخوتهم الخمسة المشارقة ، وقد زودهم بوجهة خروجهم إلى أوطانهم وبما يعملون به عند استقرارهم ببلادهم ، وحرّض عليهم الثبات على تعاليمه الصالحة ، وأفادهم أن الحق لا يقوم بغير قائد صالح ، وعليهم أن يختاروا للدين فإنه أكبر من أمر الدنيا ، وإذا كان الاختيار لأمور الدنيا مما يلزم فكيف بأمر الدين !

قال الإمام السالمى رحمه الله فى ترجمة أبى عبيدة عند ذكر حملة العلم : وعن أمره أيضاً نصب الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندى فى أرض اليمن ، وجمعت إمارته اليمن والحجاز .

وقد أشرنا إلى ذلك فيما سلف من كتبنا إشارة خاطفة ، ومن حيث إن هذا الإمام كان له تاريخ مجيد ولرجاله الأوفياء الذين قاموا بدولته ، وصارعوا البغى حتى أقام الله بهم حجته ، وأبان بهم الطريق الذى ينبغى للمسلم أن يسلكه ، وإن كرت عليهم الدنيا بجنودها ، وأقبلت عليهم الأيام بحشودها ، فإن الموت لابد منه وأفضله ما كان فى الله ، لا سيما إذا رسم للمسلمين الخطة التى ينبغى المضى عليها ، فإن طالب الحق قام على بغاة اليمن فقضى عليهم وأوضح للناس الطريق التى يلزم أن ينتهجوها فى حياتهم ، وأرسل عامله البطل الشارى أبا حمزة المختار بن عوف السليمى[1] من أهل الباطنة من عمان من خصوص قرية مجز — بكسر الميم وفتح الجيم بعده زاء معجمة — من أعمال صحار[2] ، كان ممن يملأ العيون روعة ويدهش القلوب

هيبة ، الذى إذا تكلم خلت الجبال تتصدع أمامه، والبحار تموج حوله ، والسيوف تسل بين يديه ، والباطل يذوب لديه كما يذوب الجليد من حر الشمس ، وهيبة الحق تهتز لها الرواسى .

قال صاحب معالم الجزيرة [1] : وكل ما نعرفه حتى الآن أن ظهور الأباضية فى حضرموت كقوة سياسية ذات شأن بدأ سنة ١٢٩ هـ عندما أعلن عبد الله بن يحيى الكندى المعروف بطالب الحق ثورته على آخر خليفة أموى ، كما سبق واستقل بالأمر فى حضرموت ، واحتل اليمن والحجاز .

قال وتتلخص دعوته فى خطبته التى ألقاها فى صنعاء عقب احتلالها أى بعد ما احتل صنعاء خطب أهلها خطبة أبان لهم فيها مقصده فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر النبى فصلى عليه :

إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا ، رضينا بالحلال حلالاً لا نبتغى به بديلا ولا نشترى به ثمناً قليلا ، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات محكمات، وآثار نقتدى بها، نشهد أن الله صادق فيما وعد ، عدل فيما حكم ، وندعو إلى توحيد الرب واليقين بالوعيد والوعد ، وأداء الفرائض والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله والعداوة لأعداء الله .

هذه هى مهمة هذا البطل الكندى فمتى نسمع خطيباً يقول لنا ندعوكم إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ، وإلى فرائض وآيات

[1]

محكمات ، وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأين نسمعه وفى أى خطبة قالها خطيب غير أباضى؟! فما بال من يدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، يقاتل ويقام له فى وجهه ، ولا تقوم له الأمة مناصرة له على أعداء الله ، ولقد تحقق أن الأباضية فى حضرموت واليمن هم الأكثرية ، ولهم اليد التى تعمل جاهدة لنشر دعوة الحق فى ربوع الأرض ، وأن طالب الحق أحد رجال الأباضية وعليه المعول فى إقامة أعمدة الدين وبناء الكيان الصحيح ، وأن اتصالهم بأباضية البصرة غير مخفى ، وأن أبا عبيدة العلامة البطل لا يزال يراعى الحركات والسكنات فى الأمة ، وأن رجال العمل لا يصدرون إلا عن رأيه .

قال الدكتور عوض[1] فى كتابه (نشأة الحركة الأباضية) : ويبدو أن عددهم ، أى الأباضية ، غير قليل ، فالمدائنى[2] يذكر أن أبا حمزة المختار بن عوف ، وبلج بن عقبة[3] قد قدما فى رجال من الأباضية لنصرة إخوانهم فى العقيدة ، والمعنى أن الأباضية موجودون فى بلاد اليمن ، والذين جاءوا إنما جاءوا لمناصرة إخوانهم المذكورين ، لأن الحكومة فى اليمن إذ ذاك أموية وهؤلاء يحاولون التملص منها أو الانقلاب بها والحلول مكانها ، لأنها ظالمة .

قال الدكتور : أما رواية الأزدى فتعتبر أكثر وضوحاً فى إشارتها إلى كثرة عدد أباضية البصرة الذين اشتركوا فى حركة طالب الحق ، وجاء إليه خلق من أهل البصرة ، وقد بالغ خليفة بن خياط[4] عندما أورد رواية ذكر فيها أن عامة جيش طالب الحق كان من أهل البصرة . قال وأياً كان فإن الصحيح فى هذه الروايات أنها كلها تؤكد على أن مجموعة من أباضية البصرة

(١)
(٢)
(٣)
(٤)

يقودهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدى، وقد هبوا لمناصرة إخوانهم فى حضرموت .

فهذه الروايات توضح قوة الأباضية فى البصرة وكثرتهم حتى جاءوا مؤيدين لإخوانهم فى حضرموت واليمن ، ومما يدل على كثرة الأباضية فى اليمن قوله — وهو يذكر طالب الحق : قرر السير إلى صنعاء أى من حضرموت أى بعد ما احتلها وكتب إلى من كان بها ، أى بصنعاء من الأباضيين يستنهض هممهم ويطلب منهم الاستعداد واليقظة التامة ، وهذا يبرهن على كونهم بصنعاء جماعة لها أهميتها وعدداً صالحاً للاعتماد عليه فى المهم الذى يحاوله . قال ويخبرهم أنه قادم إليهم ، ثم استخلف عبد الله بن سعيد الحضرمى على حضر موت وسار على رأس ألفين من من أصحابه متوجهاً إلى صنعاء اه نقلا عن البلاذرى[1].

قال ولما علم الوالى أى على صنعاء وهو القاسم بن عمر الثقفى[2] ، قال ولما علم الوالى الثقفى المذكور قرر ملاقاة الجيش الأباضى خارج صنعاء ، ويبدو أنه كان مستعداً ومعتداً بقوته وعسكره الكثير ، ولم يتخذ الإجراءات والخطط الكفيلة بنجاح حملته ، وكان جمع جيشاً عظيما لما علم بأنباء سير الأباضية إليه ، وقد وصف البلاذرى جيشه بأنه كان ضخماً ذا عدد كثير وعدة ظاهرة، قيل يبلغ جيشه ثلاثين ألف مقاتل ، وعلى كل حال إن قيل إن هذا العدد مبالغ فيه ، ولكنه من المفهوم الصحيح أنه كان أعظم من جيش الأباضية ، وأكثر عدة هكذا يقول البلاذرى فى الأنساب ، ولكنه هزم المذكور وتقهقر إلى صنعاء حيث لحق به طالب الحق وهزمه مرة

(١)
(٢)

أخرى فهرب إلى بلاد الشام مع بعض جنـــده ، واستولى الأباضية على المدينـــة .

قال الدكتور : وتشير المصادر سنية وأباضية وشيعية إلى أن طالب الحق وأعوانه الأباضية قد عاملوا السكان معاملة حسنة ، ولم يتعرضوا لأحد بأذى ، قلت وهذا شأن الأباضية مع كل الأمم ، وفى كل حركة ومع أى خصم لم يعرف لهم ظلم أو عسف أو بغى على أى أمة كانت ، وهذا تاريخهم شاهد لهم .

قال الدكتور : وتورد بعض المصادر الخطبة التى ألقاها طالب الحق فى أهل صنعاء ، والتى تبين بوضوح بعض آراء الأباضية فى تلك الفترة المبكرة . قال وقد خيرّ الناس فيها بثلاث خصال أيها شاءوا فليأخذوا بها .

الأولى : أن يتبنوا الأفكار الأباضية وآراءها ويجاهدوا مع أتباعاها ، وفى هذه الحالة يتساوون فى الحقوق والواجبات مع إخوانهم الذين سبقوقهم إلى هذا الأمر ، ويكون لهم من الأجر ما لأفضلهم ، ومن قسمة الفىء ما لبعضهم .

الثانية : من قال بقولهم ولم يجاهـــد معهم فعليه أن يدعو إلى هذا الرأى بقلبه ولسانه ، قال ولم تذكر الخطبة حقوقاً معينـــة لمثـــل هؤلاء الأتباع .

الثالثة : أن يلزم من لايقبل هذين الشرطين الحياد على الرغم من معارضته للمبادىء الأباضية ، وفى هذه الحالة لن تعرض له أحد بأذى ، قال وهذا ما عبر عنه طالب الحق بقوله : ومن كره هذا فليخرج بأمان

إلى ماله وأهله ويكف عنا يده ولسانه ؛ فإن ظفرنا لم يكن عرض لنا نفسه ولم يحملنا على سفك دمه . قال ولم تذكر الخطبة حقوق معينة لمثل هؤلاء الأتباع :

فانظر أيها الفطن اللبيب فى هذه الخصال الثلاث التى خطها طالب الحق وتصور معانيها ، تجد المطيع للأباضية يكون أخاً لهم شريكا فى الرأى والعقيدة وشريكا فى المال والحال ، مقبولا مأموناً محترما شريكاً فى المصالح الحيوية ، ومن كان مقتصراً على السكون والدعة غير متصد لداع فى الدين وغير قائم بدعوة المسلمين قيام المجاهدين فى الدين ، ومن لم ير أن يفعل شيئاً من ذلك فهو حر فى دينه وماله ، محترم فى أهله وبيئته لاخوف ولا حرج إلا إذا ظاهر على المسلمين أوواطأ عليهم أو دس عليهم ، فحينئذ يصير عدواً بهذا الفعل الذى ارتكبه .

قال : وقد قام طالب الحق بتوزيع ما استولى عليه من خزائن وأموال بين الناس فى صنعاء وخاصة الفقراء منهم ، قلت رأى طالب الحق وأصحابه رحمهم الله أن تلك الأموال جبيت من الناس على غير الوجه المشروع ، ولا يعرف ربها لاختلاطها كثرة وقلة وحلا وحرمة ، وأن مثل هذا فمرجعه فقراء المسلمين حيث يصير مجهول الأرباب ، ونزه نفسه عن أن يتولى شيئاً من محصول الظلم والجبروت ، ولا زال أئمة الأباضية على وتيرة النزاهة فى الحال والمآل ، وفى كل الأعمال .

فالحمد لله الذى جعل النزاهة للأباضية شعاراً يعترف به عباد الله ، ويشهدون به يوم لايغنى مال ولا بنون إلا من رحم الله .

ونحن هنا لانريد ذكر تاريخ الإمام طالب الحق عبد الله بن يحيي وحزبه ، ولاذكر أعماله وحروبه وتاريخ دولته ، وما كان منه وما كان عليه ، فإن ذلك شيء يطول وله تاريخ حافل كفيل بكل ما له به تعلق ، وإنما أردنا أن نذكر وجود الأباضية فى هذا الطرف ليعلم أن الطرف اليمانى كان فى عهده الحديد القريب من عهـد النبوة أباضياً ، وأن معنى الأباضية هو الشائع فيه عهد الحق وإن طرأ عليه بعد ذلك ما طرأ ، فإن العهد الأباضى هو الذى عليه المعول . وإن من حقنـا ذكر ما كان للآباء والأجداد و أهل ملتنا من شأن وإن أمر الدين من أهم الأمور .

مشاهير الأباضية فى اليمن

كان الأباضية كما قلنا فى اليمن وحضرموت هم الأكثرية التى هى الحجة فى الدين ، ومنهم أبرهة بن الصباح الحميرى(١) كان من قادة الأباضية ، ولما هزم الأمام طالب الحق بين مكة وصنعاء ، وكان توجه لحرب الشاميين الذين تعرضوا لأبى حمزة ، فالتقى بعدوه فى هذا المكان فكانت الدائرة عليه ، وقتل معه من أباضية اليمن عدد كثير . ومن الأباضية يحي بن عبد الله بن عمرو بن السياق الحميرى(٢) من القادة أيضا الذى بايعه الأباضية إمام دفاع ، وقتل أيضا فى عدن إذ التجأ إليها وهاجمه العدو فيها ، وتغلب الجيش الأموى على اليمن وفر بقية الأباضية إلى حضرموت وارتفعوا فى داخليتها ، وقتل الأباضية فى مكة مع عالم مكة أبى الحر على بن الحصين وأربعمائة من الأباضية ، واستعد الأباضية فى حضرموت للقاء الجيش الأموى المنتصر عليهم .

قال الدكتور : واستعد الأباضية لهذا اللقاء المرتقب وتجمعوا من أنحاء مختلفة من حضرموت ، والتف معهم كندة ونهد وعقيل وهمدان ، واجتمعوا عند عبد الله بن سعيد الحضرمى الذى اتخذ شبام قاعدة له ، وملأ الأباضية حصونهم بالمؤن والطعام والعتاد ، ثم ساروا للقاء الجيش الأموى خارج حصن شبام حيث دارت بين الطرفين معركة طيلة النهار دون نتيجة حاسمة ، وضايق القائد الأموى المسمى عبد الملك(٣) الأباضية واحتل حصن شبام ، واستولى على الذخيرة التى فيه .

ولكن كل ذلك لم يقض على حركة الأباضية ، بل استرسلوا لقتال عنيف ، بل استطاع الأباضية إرجاع قواهم بعد ذلك كله ، فحصروا القائد المذكور

(١) (٣)
١٢٦

أربعة عشر يوماً استطاع مصالحتهم ، أى أباضية حضرموت ورد عليهم ما عرف من متاعهم المنهب عليهم ، وولى على حضرموت رجلا باختيارهم ورضى منهم بطاعة اسمية ، ثم خرج إلى مكة ليترأس موسم الحج فلحق به الأباضية فقتلوه فى الطريق دون مكة وقتلوا صحبه انتقاماً بمن قتل منهم .

والمستفاد من هذا أن الأباضية فى اليمن لها حركة هامة جداً ما زالت مع الغزاة فى صراع ، وما زالت حضرموت وتوابعها وصنعاء وتوابعها إباضية زعامة وشعباً ،ولم تؤثر الغزوات والحروب الجائرة على أباضيتهم إلى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ولما أراد الله أن يرفع يده عن هـذه الأصقاع سلط عليها الجبابرة والجورة الظالمين ، فقضوا على الأباضية بأعمال لا يرضاها الله ولا رسوله ، وما كانت للأباضية زعامة جائرة فى أى وقت من الأوقات ، بل كانوا إذا أمكنتهم الفرصة عمدوا إلى أفضل رجالهم وأكمل علمائهم وأخيارهم فبايعوه على طاعة الله وطاعة رسوله ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأقاموا به منار الحق وأعانوا الضعيف وأضعفوا القوى ، واحتقروا ما عظمت الجبابرة وعظموا ما حقرته،وأعادوا الشريعة السمحاء فى مجراها الطبيعى وبنوا المساجد وأقاموا الجماعات والجمعات ، وأصلحوا الأمة وذلك دأبهم فى كل أوقاتهم وكل أزمنتهم وفى كل مكان ينزلونه :

وهذا الدكتور عوض يقول : وفى أواخر العقد الثالث من القرن الثانى للهجرة استغل مشايخ الأباضية المشاكل التى واجهتها الدولة الأموية ،

وأوعزوا إلى أتباعهم لإعلان الإمامة فى بعض المناطق ، واستطاع الأباضية تأسيس إمامة أباضية فى كل من حضرموت واليمن وعمان اه .

ولكن أعداء الحق يسوءهم قيامه وأكثرهم للحـــق كارهون ، ومازالت بلاد اليمن وحضرموت يشملها اسم الإمامة طيلة العهود الحالية تبعاً لعمل الصحابة رضوان الله عليهم ، فإنه لمـــا مات النبي عليه الصلاة والسلام لم يقولوا انتهت النبوة وانتهى الأمر ، بـــل أقاموا أبا بكر رضى الله عنه إماماً لهم عاملا بما جاءت به النبوة تابعاً لأوامرها قائماً بما قامت به الأمة ، محافظاً لسيرتها ، وبذلك لم يفقد من النبى عليه الصلاة والسلام إلا شخصه الكريم ونزول الوحى بعـــده ، ثم لمادنت وفاته رحمه الله أقاموا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسار مسيرة صاحبه وأعطى القوس باريها ، وأجرى الأمور فى مجاريها .

ولما حضر أجله بايع المسلمون عثمان بن عفان على ما بويع عليه من قبله ، وهنا بدأ انتقاض صرح الإمامة حين وقع الخلـــل فى حائطها ، وتصدع ذلك البناء وانهار ، ثم بايعوا على بن أبى طالب وقام حد طاقته حتى عصفت به رياح زعازع زعزعت الإمامة وقلبتها رأساً على عقب ، وتأخر ذلك المسير الراشد ولكل شىء نهاية .

وبايع فريق من المسلمين الحسن بن على فألقاها فى بلعـــوم معاوية يلعب بها كيف شاء ، ثم بايع المسلمون أعنى الأباضية فقط إماماً لهم ثم استمروا فى عهودهم على ذلك منذ ذلك العهد ، وإنه لم يعرف فى أمة من أمم الإسلام بعـــد ذلك إلا الملك العضوض والسلطان المتغلب على الأمة، الأباضية فإنهم بايعوا أئمـــة بعمان وبحضرموت واليمن والمغرب ، ولم

يعرف هذا الحال في غيرهم من أمم الإسلام ، بل الموجود فيهم الرضوخ لطاعة الظالم جار أم عدل ، وأصبح عمل الصحابة ملقى فى الحضيض وأمر محمد عليه الصلاة والسلام يتلاعب به السفهاء والأوغاد ، وأى سفه أكبر من إباحة حرم رسول الله بمرأى منه ومسمع ، ثلاثة أيام تهتك فيها الحرم وتداس فيها كرامة النفوس الكريمة ، وتطأ أقدام الفساق على هامات أهل الحق ، ويقاتل المحق حتى يقتل والحق معه ، ويؤيد الظالم وهو على ظلمه .

وهكذا وما زالت إمامة حضرموت تابعة لإمامة عمان وما زالت أباضية عمان تؤيدها على أعدائها إلى آخر عهد من حياتها ، وقد كتب الله على الدنيا الزوال وعلى أيامها التداول ، ومن المحال دوام الحال والأباضية أصبحت فى نواحى اليمن بعد ذلك العهد الزاهر لا تعرف ، وانمحت رسومها وبادت رجالها وتقلص ظلها ، بل من أغلب بلاد الله بعد ما كان للأباضية عدة أئمة فى حضرموت وفى اليمن فإنهم جملة آخرهم الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن قيس[1] رحمه الله ، وهو صاحب الديوان الموسوم بالسيف النقاد ، وهو عنوان حماسة ذلك الإمام الهمام البطل المقدام ، فرحم الله أولئك الأئمة ورضى عنهم ، فإنهم بذلوا أرواحهم قرابين لله عز وجل ومضوا تحت ظلال السيوف فى طلب مرضاة الله جل شأنه .

لقد منى الإسلام بمصائب هامة وهى الخضوع للظالم على ظلمه ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وبدل حكم الله عز وجل الذى شرعه لعباده بالقوانين الوضعية والسلطان

(١)

الحقيقى هو الواحد القهار ، وبذلك رفع الله عونه ونصره عن المسلمين بعد ما كان ناصرهم وهم قلة ، وكان ناصرهم وهم على خلو ذات اليد ، ولما رفع الله عنهم يده انهارت صروحهم وتفرق جمعهم وتمزق شملهم ونزلوا إلى الحضيض ، وكانوا سادة العالم وكانت الدنيا من أجلهم مملوءة سروراً وتمرح بهم مرحا وهم على شظف من العيش ، ولله فى خلقه أسرار ، ولا شك أن إعانة الظالم على المحق فساد عظيم ، والله لا يرضى من عباده الفساد فى ملكه :

الإمام عبد الله بن اباض التميمى [١]

لا يخفى أن الإمام عبد الله بن أباض بن تيم اللات بن ثعلبة من بنى مرة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس آل مقاعس التميمى ، كان من أهل العراق جاء إلى الإمام جابر بن زيد لأخـذ العلم عنه ، وكان يناظره فى أموره وفى مهماته الدينية وفيما يأتى منها وما يذر ، وكان من أتباع أبى الشعثاء ، وهو تابعى أيضاً فإنه أدرك كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا يخفـى أن عبد الله بن أباض الذى انتسب إليه هذا الجيل من أمم الإسلام ، وشاع بينهم شيوعاً سريعاً باسم الأباضية نسبة له إلى أباض [٢] والد عبد الله ، وكان أباض المذكور أفقه من عبد الله وأعلم منه ، إلا أن عبد الله كان أثقـل على زعماء الباطل من الصخرة ، وكان لا يبالى برد الباطل على صاحبه ولا يحابى فى الدين ولا يأتى أبواب الأمراء الذين تسلطوا على الأمة بالجبروت ، وكان له من عشيرته حمى منيع وركن رفيع لم يجسر أحـد [٣] على الحط من قدره ، فإنه كان مقداما لا يراع ومنهما ما لا يرتاع يقوم فى وجه البغى غير خائف ولا وجل : (ولولا رهطك لرجمناك) [٤] الآية ،

والأحنف بن قيس [٥] مع رهطه كان يدارى معاوية ويتقيه نظراً إلى دنياه التى يطمع الأمراء فيها ، بخلاف عبد الله بن أباض مع عبد الملك وأعوانه ، مع أن سطوة عبد الملك على الناس أجرأ من معاوية ، إذ كان معاوية جديد عهـد بسيرة الخلفاء الأربعة ، أما عبد الملك فقد تجددت به أبهـة الملك وسطوة السلطان ومع ذلك يراعى عبد الله

ابن أباض وهو لا يداريه ولا يجاريه ، بل يرد عليه أعماله ويتباعد منه ، فلذلك شاع له صيت انضوى تحت جناحيه هـذا الجيل فأطلق الاسم عليه فصار علماً على هذه الأمة المسماة الآن بالأباضية ، بخلاف بقية المذاهب فإنها انتسبت إلى علماء أخذت بأقوالهم وتركت ما سواها ، وبذلك عرفت ، وابن أباض من أبطال العلم الذين شهد لهم التاريخ بما لم يشهد به لغيرهم[1] .

مركز المذهب الأباضى

لا يخفى أن مركز المذهب الأباضى كان بالبصرة حيث نبت بها وانتشأ فيها وتفرع منها وامتد إلى أرجاء العالم الإسلامى ؛ فاتصل بعمان القريبة من البصرة بغاية السرعة ، وهوت إليه من عمان أنجم نيّرة وأعلام خيّرة وأبطال تحب الإيمان ، وتهافت إليه أهل الخير من كل جهة ، وقامت له دعاة تدعو المسلمين إلى اتباعه والعمل بمقتضاه ، تريد بذلك وجه الله عز وجل لا تخاف لومة لائم حتى رسخ فى نفوس المؤمنين ، وقرّ على دعائم الحق المبين كما امتدت له أركان إلى المغرب السامى بواسطة حملته الخمسة زملاء العمانيين الخمسة ، فقامت له بالمغرب دول لها أهميّتها ولها عظمتها برجال أبطال وأئمة أقيال ، عرفوا الحق فاتبعوه وعلموا الواجب فامتثلوه ، ورأوا جور الظلمة وعتاة الأمة فقاوموهم ، فكانوا فى جبهة الدهر غرة مشرقة ، وفى سماء الإيمان الأنجم الساطعة ، صارعوا الباطل كلما ظهر ، وناصروا الحق من أين أتى ، لا يرجون على ذلك ثواباً إلا من الله ، باعوا نفوسهم بأغلى الأثمان عند الله فوفقهم الله ومضوا إليه تحت ظلال السيوف ، وعلى حصى الأرض تسيل دماؤهم وهى بعين الله والحور العين تصفق لها فرحاً بها ، إذ كان أهلها رجال الله ، وكذلك امتد المذهب إلى اليمن ونواحيها بحملة العلم من القدوة الصالح أبى عبيدة الرضى ، وإلى خراسان فكان لرجالها الشأن بين تلك الأصقاع ، وإلى مصر كنانة الله فى أرضه ، وإلى الجزيرة العربية

والحرمين الشريفين برجال الأباضية الذين هم رحمة الله فى أرضه ، وحجته على عباده :

ولا ضير فهم الأئمة المؤمنون وهم الهداة المخلصون الذين تحيا بهم الأرض وينبت بهم الزرع ويحفل بهم الضرع وتسعد لهم الحياة وتعتمر بهم البلاد ، وتبتهج بهم العباد وتسكن إليهم النفوس . ولما رأت الدول التى تميل إلى الملك العضوض والسلطة القاهرة التى لا تزال أهميتها فى الاستيلاء على الناس بالقهر والغلبة ، عادت هذا المذهب وتألبت عليه وحاربته فى كل أنحاء العالم الإسلامى ، لأنه يخالف مبادئها ويصر على أن يكون عمرياً خالصاً وهى ترى أن تكون أموية أو هاشمية أو قيصرية أو كسروية ، فكان ذلك هو الفارق بينها وبينه ولا شك أن النفوس غالباً تحب الترفه والرياش الحسن .

والمذهب الأباضى يحب أن يكون على نهج الخليفتين لا قرابة عنده إلا بالحق ولا بعد لديه إلا بالباطل كما كان الصحابة رضوان الله عليهم ، يحب أحدهم قتل أبيه على الإسلام ويفرض لأحدهم فى بيت مال المسلمين الشىء الضئيل مما تقوم به الحياة وما عداه ، فلبيت المال لقوة الدولة وليس للأمير أكثر مما للمأمور ، فإن ذلك على الأقل يثير الحرج فى نفوس الأمة ، وإذا تحرجت الأمة وتأثرت وبقى ذلك فى نفوسها أورثها داءً عقيما قد لا يكون له علاج ، أما المساواة فهى تورث الأمن والاطمئنان لأنه إنصاف ومع الإنصاف تسكن النفوس وترتاح وتطول قناتها .

والمذاهب المعادية للمذهب الأباضي تناصرها الدول التي تتمذهب تمذهبها ، وتلك الدول هي التي ترفع من خسيسة مذهبها على الرغم من أن تكون ضداً له في حال من الحال ، والحكومات التي تؤيد مذهبها ترغم الناس على اتباعه حقاً كان أو باطلا ، فيقوى بذلك وتخضع له الناس حتى يألفه السواد الأعظم ، وبذلك يقضى على المذهب الأباضي المهان المستضعف ، ومن تأييدها لمذهب نشر مؤلفاتها وإرغام الناس على العمل بما فيها ، فكم جلد العلماء ونكل بهم وقتلوا على عد القبول لما جاء فيها .

فهذا أحمد بن حنبل[1] جلد مرات على مسألة خلق القرآن ، وهذا أبو الشعثاء وأبو عبيدة كم عاشا في المغارات على غير جرم أو ذنب إلا كونهما مخالفين لغيرهما ، وكذلك بقية العلماء الذين عرفوا في التاريخ الإسلامي لم ينج منهم من الهوان والعذاب إلا من شاء الله ، وإرغام أهل الحق وتأييد أهل الباطل من أكبر الدواهي في اعتبار أهل العقول ، ولم يكن للمذهب الأباضي مناصر إلا الحق الذي يشع من خلال ثناياه حين يرفع عقيرته إلى الله فيقيم له الله قواماً من رجال الدين من يؤيده وينصره ويجدد معالمه ، فلا ناصر له إلا الله ولا مؤيد له سواه ، فذلك تقلص ظله من العالم الإسلامي إلا ما شاء الله ، وارتفع من الأراضي التي كان انتشر فيها ، ولله أمرٌ هو بالغه ، وحكم هو نافذه ، وقد تمت به حجة الله على عبادة ، فإن الله أوحى بدينه إلى عباده ليناصروه ويؤيدوه ويفدوه بالأرواح ، ويقوموا بواجباته رغم أعدائه ، فإذا ضيعوه فقد وقعوا في سخط الله عز وجل (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[2] ولما أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، ولم يتركها

كسروية وقيصرية إنما ذلك من رحمته تعالى على عباده (وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له من الله)[١]!

وبقاء هذا المذهب على النهج الصحيح رحمة من الله لعباده ، فإنه مذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وحديث الافتراق يؤيده فإنه ما جاء مذهباً مستحدثاً وإنما جاء مذهباً متأصلا على القواعد الصحيحة ، مدعماً بالأصول الواضحة الرجيحة إذا تتبعه ، ونظر إليه بعين الإنصاف لم يجد فيه ما يخالف الهدى النبوى ، وسوف ننقل لك ما يقوله أهل الحق فيه وما لدى أهل المذاهب الأخرى فيه أيضاً .

ما يقوله علماء الإسلام فى المذهب الأباضى

اعلم أن ما يقوله علماء الإسلام فى المذهب الأباضى من الحق ومن القرب منه ، ومن أصح ما قيل : إن الأباضية من أصدق فرق الإسلام يوجب عليهم اعتناقه واتباعه إن لم يغلب عليهم الهوى ، أو يكون الحرمان مانعاً لهم أوالتوفيق نائباً عنهم ، وما قيل قديماً ربما قيل فيه من تغيير أوتبديل ، أولا يعرف حال القائل وما كان من أهل العصر فيكون كالمحدث الحالى .

هذا العلامة الجليل عزالدين التنوخى[1] عضو المجمع العلمى يقول قولا صريحاً صحيحاً لايبالى بأهل مذهب للمسلمين أياً كان ، بل يقول المذهب الأباضى هو الحق ، وإذا كان هو الحق فالحق يجب قبوله ويجب اتباعه وطاعته ، قال ذلك إجمالا وتفصيلا على رءوس الملأ ، وقد حقق المقال عن الأباضية فى عدة مواقف ، واعترف[2] بصحة مسندهم وأنه الصحيح ، وإذ كان مسندهم صحيحاً كان عملهم صحيحاً ، لأنهم بنوه على صحيح ، وما انبنى على صحيح فهو صحيح من غير شك ، ومعنى صحيح أى حق والحق هو الذى يجب قبوله واتباعه ، ومن لم يقبل الحق فهو كافر ، فإن الله أمر بالحق ودعا إليه .

قال العلامة حسن السندوبى[1] محقق البيان والتبيين للجاحظ : المذهب الأباضى وأهل هذا المذهب من أفاضل أهل القبلة وممن ينفرون من البدع التى ليست من الدين فى شىء ، قلت هذا نص صريح فى تصحيح مذهب الأباضية . قال ومن هنا يتهمهم بعض المسلمين بالتشدد وبعدم

مسايرتهم للتقدم ، بل يرمونهم بما هم برآء منه . قلت إن الله يعلم خاينة الأعين وما تخفى الصدور ، إنما يرمونهم حسداً من عند أنفسهم كأنما يشير إليهم قول القائل :

حسدوا الفتى إذا لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء لهم وخصوم

قال : وقد كنت خدعت بقولهم أى قول خصوم الأباضية فيهم فرددت مجمل ما يتهمونهم به ، ثم تبين لى اليقين فيهم فعلمت أنهم من خيار المسلمين ، وممن يرجعون فى كل أمورهم من عبادة ومعاملة إلى الكتاب والسنة ، والمعنى أنهم لايعملون بما يخالف الكتاب والسنة ، وهذا تصحيح لمذهبهم وإثبات للحق فيه اه ببعض تصرف .

أما السيد مصطفى بن إسماعيل المصرى [1] الذى وفقه الله لاعتناق المذهب عملا بالحقائق التى تلقاها بباعث سماوى ، فصار ينافح عن المذهب ويكافح عنه ، وأنشأ مجلة ضمنها النصائح للملوك والأمراء باتباع لمذهب الأباضى ، واعتزل قومه وتباعد منهم ورد عليهم كل ما يرمون به المذهب الأباضى من سوء ، وحاولوا رده عنه ، فقال : هيهات الرجوع عن الحق فالتحق به كثير من أقاربه وأخصائه ، وقامت له كتلة ضربت معسكرها خارج مصر .

ومن حيث إن رجالا من فرنسا جاوروا الأباضيين أيام احتلالهم للمغرب وبحثوا الأديان بحثاً دقيقاً ودرسوها درساً معنوياً قرروا أن نقاوة الدين الإسلامى لا تنحصر إلا فى مذهب أتباع ابن أباض ، وأنته

خبير أن حديث الافتراق الذى رواه أئمة الحديث ينص نصاً صريحاً أن الناجية من الفرق واحدة فقط ، ونحن لانحتج على غيرنا بمقال علمائنا ، إذ ربما يقول قائل إنهم متعصبون لمذهبهم ، ولكنا نحتج بما يقوله علماء المذاهب الأخرى . قال الزبير بن على الأصغر[١] من أهل عظيم أباد من أرض الهند : الأصلح والأسلم ما عليه الأباضية . وقال عبد الرازق البغدادى[٢] من أهل العلم فى أول هذا القرن : إن الأباضية أقرب الفرق إلى الحق . وهكذا غالب أقوال المطلعين على أصول المذهب وفروعه والعارفين بمقاصد علمائه لاتزال عباراتهم كما أشرنا إليها سابقاً ، منهم من ينسب الأباضية إلى أهل الحق ، ومنهم من يضيفهم إلى القرب منه ، وهكذا ذلك لأنهم لم يجدوا بداً من قول الحق فيسترون بمثل هذه العبارات .

وقال صاحب كتاب المذاهب الإسلامية المصرى[٣] : الأباضية أتباع عبد الله بن أباض ، وهم أكثر الخوارج اعتدالا ، وجعل الأباضية من الخوارج كالشىء المتقرر لقصورهم فى تحقيق الحقائق التاريخية والعقائدية ؛ ولا يضر الأباضية ذلك فإن الجهل فضحية المتحدث به ، وقوله أكثرهم اعتدالا شهادة منه لهم رغم ما يقول القلم الطاغى الذى لايقف عند الحقائق بأصل ، قال وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيراً ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو . وهذه الجملة تنير الطريق لمن ألقى السمع وهو شهيد . فالأباضية أكثر اعتدالا وأقرب إلى الجماعة الإسلامية تفكيراً وأبعدهم عن الشطط والغلو ، إلى أن قال :

وقد اقتبست القوانين المصرية فى المواريث بعض آرائهم ، ثم قال عنهم : وجملة آراء الأباضية تنص أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا بمشركين . قلت نعم لأنهم يقولون لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال ولامؤمنين أى الأباضية يقولون لمخالفيهم مسلمين لامشركين . قلت لقد خرجوا من الشرك بلا إله إلا الله محمد رسول الله ، وخرجوا عن المؤمنين بفعل المعاصى ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »[١] الحديث ، وذلك فرع على قوله عز وعلا : (وقالت الأعراب آمنا قل)[٢] لهم يا محمد (لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم)[٣] و معنى قولوا إنا مسلمون بقولكم لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أما الإيمان فلا لأنكم تفعلون ما لا يرضاه ، فأنتم باعترافكم بوحدانية الله حين قلتم لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فبهذا أسلمتم فحرمت دماؤكم وأموالكم إلا بحقها وحسابكم على الله ، إما عفو وإما عقاب .

وهذا المبدأ هو الذى حير الكثير من أهل المذاهب وتركهم لا يهتدون طريقهم ، لأن الكفر معهم الشرك وجهلوا كفر النعمة أصله وفرعه ، فأصبحوا فى هوة لا نجاة لهم منها ، ولم يفهموا أن الله خلق لهم عقولا وخاطبهم بتكاليفه بها وأنها نعمة عظيمة كفروها حين تعدوا حدود الله بارتكاب ما حرم عليهم ، وكان من واجب من أنعم الله عليه بنعمة العقل وجعله الفارق بينه وبين غيره من الحيوان أن يكون واعياً أوامر الله واقفاً عند حدوده لا يتعداها قيد شعرة .

قال الشيخ المصرى حاكيا عن الأباضية : إنهم يسمون مرتكب الكبيرة كافر نعمة لا كافراً فى الاعتقاد ، وقد بينا لك تحقيق المقام . قال الشيخ وذلك لأنهم لم يكفروا بالله ، قلت : لوكفروا بالله أو برسله أوبكتبه أو بشىء من

ذلك لكانوا مشركين ، والمشرك حلال الدم والمال لايزاوج ولايناكح ولايمنح حقوق المسلمين العامة كالصلاة عليه إذا مات ودفنه فى مقابر المسلمين ، وكالولاية له ونحو ذلك من الحقوق مما هو بعيد منه فى حكم المسلمين بُعد الثريا من الثرى .

قال الشيخ صاحب المذاهب الإسلامية حاكيا عن الأباضية : يقولون إن مخالفيهم لم يكفروا بالله لكنهم قصَّروا فى جنب الله ، ويقولون دماء مخالفيهم حرام ودارهم دار توحيد وإسلام ، ثم قال ولكنهم لايعلنون ذلك فهم يسررون فى أنفسهم أن دار مخالفهم ودماءهم حرام . قلت لاأصل لهذا الزعم فإن الأباضية ما يرونه حراماً لايخفونه ولايكتمونه ، بل يصرحون به صراحا لاهوادة فيه ؛ وقوله إلا معسكر السلطان وكلهم يتداولون هذا التعبير . قلت فلعلهم يرونه أقيم ببيت مال المسلمين كالحصون والقلاع ونحوها ، فإنما تبنيها الملوك والسلاطين ببيت مال المسلمين ، وإذا كان الأمر كذلك فلا جرم على الآخذ من بيت مال المسلمين ، هذا على فرض صحة ما يقولون .

وقوله عنهم أى الأباضية لايحلون من غنائم المسلمين الذين يحاربون إلا الخيل ، وكل ما فيه من قوة فى الحروب هذا خطأ فاحش لايليق بمن يتسم بالعلم أن يقول إن الأباضية يحلون ذلك . نعم إن كان السلاح أو الخيل من بيت المال سبيلهما سبيل بيت المال ، وأما خيل أهل القبلة وسلاحهم فلا يحل من ذلك شىء أبداً لا قليلا ولا كثيراً ، وإنما يجيزون الاستعانة بذلك على حربهم إذا كانت فى المسلمين حاجة إلى ذلك ، وجاز إتلاف خيلهم بالقتل وسلاحهم بالكسر والحرق ، وبأى نوع من أنواع الإتلاف ، لأن ذلك من نوع كسر قوتهم كقطع نخل بنى النضير وقطع شجرهم وتدمير منازلهم ، قال ويردون الذهب والفضة ، قلت ذلك دليل على نزاهتهم فإن الذهب والفضة هما المطموع

فيهما طبعاً ، قال وتجوز أى عند الأباضية شهادة المخالفين ومناكحتهم والتوارث معهم ، قال ومن هذا كله يتبين اعتدالهم وإنصافهم لمخالفتهم اهـ . قلت وبهذا وأمثاله يقول علماء الإسلام الذين يقاربون الحق ويظهرون وميضا من ضيائه ، وفى الغالب أعداء الحق وهم الأكثرون لايرون إلا كتمان حقائقه ومحو رسومه ، وللناس أهواء تتحكم عليهم ، ألا ترى ابن الصغير المؤرخ المغربى[1] يذكر بعضاً من الحق عن أئمة الأباضية ، ويشهد لهم بأنهم على الحق فى أعمالهم ويعترف لهم بالعدل والإنصاف ، ومع ذلك يعان عداوتهم كما أعلن أناس عداوة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وهم يعلمون أنه نبى الله عليه الصلاة والسلام .

ويكفينا فى مثل هذه المقامات أن نشير إلى الأحوال ولو من بعيد ، ونتحدث عن المذهب وأصوله وفروعه ، وعن رجاله وعقائده ، فإذا وقف على ذلك عاقل يلتمس الخيرة لنفسه فهو أملك لأمره ، والله كلف عباده اتباع الحق ، لانقول فى أى مذهب من مذاهب المسلمين شيئاً يجرح حاشية أو يؤثر على نفس ما ، ونكل أمور الحق إلى ربهم ، فإن الله عز وعلا يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : (قل لست عليكم بوكيل)[2] ويقول له : (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء)(١) وفى الحديث : « إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع قدرته »[3] وهو الحفى بعباده والرءوف بهم .

---

(١) سورة القصص آية ٥٦ .

القسم الثانى من الكتاب فى الاعتقاد

لا يخفى أن التوحيد ومعرفة الله ومعرفة صفاته الواجبة له والجائزة عليه والمستحيلة فى حقه من الدين ، ومن لم يعرف ربه فقد وقع فى هوة شائكة والعياذ بالله ، وقد حرر علماء الإسلام حقائق التوحيد وجعلوها علماً مستقلاً أطلقوا غليه علم الكلام ، وأطلقوا على أهله المتكلمين وها نحن نقتطف فى فى هذا الكتاب الصغير الحجم أزهاراً من التوحيد نضعها فى عقده حلقات ، راجين من الله بها توفيقه وعونه ، وأن يجعل ذلك كله ذخيرة لنا عنده تعالى وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الحلقة الأولى

فى معرفة الله عز وجل

اعلم أن معرفة الله تبارك وتعالى واجبة بالعقل قبل ورود الشرع ، فلما ورد الشرع زادها إيضاحاً وأعلن إيجابها ، وقد أعلنت الكائنات كلها عن معرفة الله تعالى ونادت بلسان الحال عنها ، وقد أشرنا إليها فى (سلم الاستقامة)[١] المطبوع فى دبى طبعا غير مستوفى الشروط ، والآن نقول هنا إن الإنسان إذا بلغ حد التكليف وجب أن يعلم أن له خالقاً خلقه ورازقاً رزقه ، ومصوّراً صوّره ومقدراً قدره ، ذلك لأنه يعلم أنه لم يخلق نفسه ولم يصبغها بصبغة قدرته وعليه ، فلا بد لها من خالق خلقها له الحول والقوة على الخلق ، وأن ذلك الخالق مباين للمخلوقات كلها وغير مماثل لشىء منها فى حال من الحال ، وأنه الكامل عن كل نقص ، فإنه إن لم يكن كذلك لم يصلح أن يكون رباً أبداً ، لأنه إذا كان عاجزاً عن شىء مّا لم يصح أن يكون إلهاً قطعاً ، ونفس الإنسان مدرسة تشتمل على معرفة الله عز وعلا ، ولهذا قال رسول الله عليه الصلاة والسلام إن صح عنه : « من عرف نفسه عرف ربه »[٢] . فإذا أمعن العاقل النظر إلى نفسه تلقى عنها دروساً تخبره عن معرفة ربه كما ينبغى وفوق ما ينبغى إن كان ذا عقل وقد أشار الله عز وعلا إلى ذلك بقوله : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم . . .)[٣] .

فالآيات التى فى الإنسان وفى غيره من الحيوان ، وفى الآفاق بكل مكان أعظم الدلائل على الخالق الديان ، فإن السمع والبصر واللسان والذوق والشم واللمس والحركات والسكنات دلائل يهتدى العقل بها إلى معرفة الله عز وجل، وفى الألوان والسحنات وفى الدم واللحم والعظام والجلد والشعر والأظافر والأسنان ، وغير ذلك مما خفى من الوعى والإدراك ، وكون

الإنسان ذكراً أو أنثى ، وذو النسل والعقم وذو البخل والكرم، وذو العفة والشره ونحوها من الأحوال، فإنها كلها دلائل على معرفة الله عز وعلا ، وعلى وحدانيته أيضاً ، فإنه إذا كان لا يستطيع أحد إيجاد شيء من ذلك وصح العجز عنه ثبتت القدرة الكاملة لله تبارك وتعالى ، وإلى هذا أشار الإمام السالمي رحمه الله حيث قال : « معرفة البارى من العقول »[١] :

ولو فتحنا باب الاستدلال على مصراعيه فى هذا المقام لنَـأَ بنا المسير إلى أبعد مقام وأدهى مرام ، هذا من ناحية العقل ، أما من ناحية النقل فقد جاءت الدلائل السمعية والنصوص الشرعية تخبر عن الله وعن صفاته نصاً صريحاً : (فاعلم أنه لا إله إلا الله)[٢]، (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط)[٣](الله لا إله إلا هو الحى القيوم)[٤]، فى أمثالها وهى كثيرة ، بل جاء القرآن يقرر الوحدانية قبل كل شيء ، ويثبت الألوهية بحسب أصولها ، وأن الكمال المطلق له تعالى لا يشاركه فيه غيره قطعاً ، وله الجلال المحقق عقلا ونقلا لا يدانيه فيه شيء من مخلوقاته مهما كانت صفتها، واختص جل شأنه بالجمال فى مصنوعاته فهو الجميل يمنح الجمال، وهو المتصف بالصفات التى تختص بالربوبية وحده تعالى .

الحلقة الثانية

بيان الصفات الواجبة له تعالى

لا يخفى أن لله صفات واجبة لا يمكن القول بوجوده دونها وهى وجوده تعالى وجوداً لا يحد بزمن ، بل له الوجود المطلق ، وله تعالى البقاء المطلق ، فلا نهاية لبقائه عز وجل ، ولا بد من هذا وإلا لم يكن جل شأنه إلهاً وهو العليم بذاته والبصير بذاته والقدير بذاته والسميع كذلك ، والقوى أيضاً والحكيم فى صنعه ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يلم به ما يؤثر عليه ، فهو فوق كل شىء وعلى كل شىء ومع كل شىء لا يخلو منه مكان ولا تحيط به الأكوان ولا تفنيه الأزمان ، يعلم ما يكون كما يعلم ما كان علماً لم يتقدمه شىء كالجهل والغفلة والنسيان .

فهذه الصفات الواجبة له قطعاً يرى ويسمع لا بآلة سمع أو بصر جل جلاله وعظم سلطانه له ملك السموات والأرض .

الصفات الجائزة عليه تعالى

لا يخفى أن صفاته تعالى الجائزة عليه هى الدالة على فعله كالإحياء والإماتة ، وكالإيجاد والإعدام ، وكالقبض والبسط ونحوها . فإن الله عز وعلا اتصف بها فى الأزل ، فهو المحيي وهو المميت والمعين والمنتقم ، والقاهر أو هما صفتا ذات ، وعلى كل حال إن اتصافه بمقتضاهما يوجب ثبوتهما له فى الأزل ، لأنه تعالى لا تبدو له البدوات ولا تحدث له الإرادات ، أوجد الشئون كلها فهى كما يقولون شئون يبديها لا شئون يبتديها ، فله كل شيء وُجد أو يوجد ، فإن القضاء والقدر حكمان أزليان أثبتهما تعالى سبحانه من فاعل ما يشاء وقاض بما يشاء ، تنزه عن الفحشاء وحكم أن لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء لا يظلم الناس مثقال ذرة حاشاه ، ولا يهمل شيئاً أمرُهُ تعالى اقتضاه واحد فى ذاته وواحد فى صفاته «لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»[1] «ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[2] «يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور»[3] «له الكبرياء فى السموات وفى الأرض»[4]

الصفات المستحيلة فى حقه عز وجل

لا يخفى أن الصفات المستحيلة عليه دخلت ضمنا فى الصفات الواجبة له ، فكل صفة وجبت له امتنع عليه ضدها ، وهذا ضابط جامع ، فإنه لو لم يكن كذلك لم يكن إلهاً ، أى لم يصح أن يكون إلهاً قطعاً ، فإن العلم والقدرة ونحوها وجبت له فامتنع عليه ضدها ، فإن ضد العلم الجهل ومن كان جاهلا أو جاز عليه الجهل لم يجز أن يكون إلهاً قطعاً .

وهكذا السمع والبصر والقدرة والإحاطة ، وما يكون دالا على نقص أو نحوه ، فإنه ممتنع على الله إجماعا إلا عنــد غير المسلمين من سائر الأديان الأخرى ، ومن الجائز عليه سبحانه وتعالى إرسال الرسل وإنزال للكتب والبعث والحساب والعقاب ونحو ذلك مما لا يدل على عجز أو نقص ، ومن حيث إنا لا نرى الإطالة لأن الوقت يقتضى الاختصار ، وإن رغبة الناس فى هذه الآونة فى المختصرات ولكل قوم رغبة نمر على المباحث مرور البدر فى المنازل لا مرور الشمس فى البروج والله المعين .

الألفاظ المشتبهة التي يدل ظاهرها على التجسيم

لا يخفى على أهل العلم أن الله عز وجل خاطبهم بلسانهم وحاورهم بما يجرى بعقولهم ، فهم يفهمون الخطاب من نفس القرائن قبل التحقق لفحوى الخطاب ، ولما تقرر فى الشريعة أن الله عز وعلا مباين لمخلوقاته فى الذات والصفات والأفعال ، لم يعد لهم وهم أو جهل فى شيء من وحى الله عز شأنه ، فإن صفات المخلوق تخالف صفات الخالق تبارك وتعالى ، فلا يرتبك الفهم العربى مهما كان فى معرفة اللسان ، فلذا لما كان الأخذ فى اللغة باليد ومراقبة الأشياء المبصرة بالعين ، وهكذا عبر الله تبارك وتعالى عن معانيها بمثل ما عبر به عن نفس ما فى الإنسان ، فقال : (ولتصنع على عينى)[1] فالعين فى حق الله عز وعلا معروفة بأنها حفظه واليد مفهومة فى حقه قدرته لما قدمنا من استقرار الفهم باستحالة صفة الإنسان أن تكون صفة للرحمن .

وهكذا بقية الصفات كالقبضة والاستواء والمجيء والجد والمكر والجنب ، فإن هذه عبارات يتخاطب بها البشر فيما بينهم فخاطبهم الله عز وجل فيما بينهم وإياه لاستقرار معانيها عندهم فى حق الله ، فلا يذهبون بها إلى غيرها ، وقد علموا أن الله جلت قدرته مباين لهم فى الأحوال كلها كما وضح لهم ذلك فى قوله : (ليس كمثله شيء)[2] .

فاستقر فى الأذهان انتفاء ما يوهم النقصان فى حق الملك الديان تبارك وتعالى مع علمهم أيضا بوجود المجازات والاستعارات فى لغتهم

(١)
(٢)

الفصحى ، وهى أكثر من أن تحصى ، بل القرآن مشحون منها بحيث يسلم لها العربى راغما أو يخضع لمعانيها طائعاً ولا يستنكر شيئاً من مبانيها ووجودها فى السنة ، كوجودها فى القرآن ، والأصل واحد ولاخلاف لديهم فيها أبداً ، فمن حاد عن نهجهم فقد رمى بنفسه فى لجة لا يرى خلاصه منها أبداً ، ومعنى جد الله عظمته وجنبه أمره كما صرح به العلماء ، والمكر عقوبته واستوى على العرش معناه القهر والغلبة ، وهــذا أمر تداولته العرب فى تعبيراتها ، وجرى على ألسنها لا يسعنا المقام أن نورد ما جاء فيه عن العرب ، ووجهه تعالى ذاته ، وقــد أشار العزيز الحكيم إلى المتشابه كهذه الألفاظ التى ذكرناها يقول تبارك وتعالى : (منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ)[1] أى انحراف (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة)[2] أى لقصد الفتنة أى ليفتنوا الناس بأن الله عز وجل له صورة كصورهم ، حيــث يصف نفسه بما يتصف به المخلوق من اليد والعين والاستواء على الكرسى ، وأنه يسعى فيصعد وينزل كما فى حديث : « ينزل ربنا آخر كل ليلة إلى سماء الدنيا »[3] إلخ فبهذه الأشياء وبحديث : « خلق الله آدم على صورته »[4] وأمثال ذلك مما يوهم التجسيم .

وتستروا بأن الله وصف نفسه بذلك فنحن نصفه بما وصف به نفسه ، لا نأوله ولا نبدله ، وهذا لا يتفق لهم فإنهم ينكرون المجاز وإنكار المجاز محض مكابرة لا يقوم لها مناصر من عقل أو نقل ، بل يجب تنزيه الله عز وجل عن كل ما يوهم النقص أو يشير إليه .

قال فى القواعد[5] : يجب على العبد معرفة ربه والإيمان به ، أى

بوجوده وأنه موجود بغير مشاهدة ، قديم بلا بداية ، أوجد منها نفسه
دائم بلا نهاية ، حي قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، عالم بما كان وما يكون،
لايعزب عنـــه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا يخفى عليه
شيء فى الظلمات ، قادر بلا تكلف متكلم بلا لسان ، سميع بلا آذان ،
بصير بلا حدقة ولا أجفان ، إله كل شيء وخالقه وإليه منتهاه ، اخترع
الخلق من غير مثال سبحانه من قادر حكيم يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

الحلقة الثالثة

فى إثبات الكمال لله

اعلم أيها القارئ الكريم أن الكمال المطلق هو لله جل شأنه لا يشاركه فيه أحد وإن اتصف بالصفات السامية وتظاهر بالخصال العالية ، فإنها إلى النقص تئول وإلى العدم تنتهى ، أما كمال الله فهو هو لا غير وبذلك يعلم ثباته ، وفى الصفات المارة ما يدل على الكمال الإلهى ، فإنه إذا امتنع فى حقه النقص ثبت له الكمال ، وتأويل المتشابه بما قلناه موجب لكمال الله ؛ وإبقاؤه على حاله الظاهر معرب عن النقص ولا يرضى به عاقل مهما كان ، ولا يصح أن يضاف إليه تعالى شىء يوهم النقص فضلا عما يوجبه ؛

فالكمال لله وحده لا شريك له والجلال لله ، فهو المستحق له عقلا ونقلا ، وقد وردت السنة النبوية باختصاصه تعالى به ، وفى الحديث القدسى كذلك يقول الله عز وجل فيما يرويه عنه سيدنا المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى »[١] والحقيقة لا رداء ولا إزار بالمعنى المعروف ، ولكن معنى ذلك أن الكبرياء صفة من صفاتى ، وكذلك العظمة . وكذلك قوله تعالى : « من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى فليفر من تحت أرضى وسمائى »[٢] والحقيقة أن الفرار يستحيل وفيه عظيم التعجيز ، فأين المفر « كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر »[٣] وإذا ثبت العجز من البشر ثبتت القدرة للمليك المقتدر ، وإذا ثبتت قدرة الله ثبت عجز المخلوق ، وإذا ثبت عجز المخلوق برز كمال الله وأشرق جلاله ، وتحقق اتصافه بالأوصاف التى لا تليق بغيره ، فهو الكامل فى ذاته وصفاته ، المحيط بكل شىء ؛

ولا يخفى أن الله عز وعلا « هو الأول والآخر والباطن والظاهر »[٤] « وهو بكل شىء عليم »[٥] ، « وعلى كل شىء قدير »[٦] والفعال لما يشاء ، تساوى معه خلق الذرة والجبل والبحر والهياكل العظمية ، لا فرق عنده بين خلق

السموات وما فيها والأراضين وما عليها ؛ يعلم ما دق كما يعلم ما جل، وهو ولى كل شيء له الحكم وإليه ترجعون ، فكل ما يتصور فى الأفهام، أو يتخيل فى الأوهام، أو تختلج به النفوس ، أو تتحرك له الرءوس فالله خالقه والله مالكه ومدبره ومقدره ومصوره كل شيء بيده ، فهو الذى قضى الأمور إجمالا وأنفذها فى الخارج تفصيلا ، ولم يخرج منها شيء عن سلطانه غير محتاج إلى شيء ولا مفتقر إلى خلق من خلقه، ربّى الجنين فى بطن أمه، وأطعم الحوت فى لجج البحر ، ويسر له ما يعيش به ، ولم يكل خلقا إلى خلق ، ولم يستحقر ضعيفا ولم يتعاظم بشيء مهما كانت صفته ، سبحانه من بديع فى ملكوته :

إيضاح لمعنى التوحيد

لا يخفى أن التوحيد بالمعنى المصطلح عليه عند العلماء ، فهو عند المتكلمين علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية ، فهو مكتسب من أدلتها اليقينية ، وعند الفقهاء هو إفراد المعبود بالعبادة ، وإلى هذا يشير القرآن حيث يقول : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)(١) ، ويقال هو إثبات ذات لا تشبه الذوات ولا معطلة عن الصفات ، والحكم بالشيء الحقيقي أنه واحد هو مفاد التوحيد ، والتوحيد هو الاعتراف بأن ما فى الوجود كله من الله ، وكل شيء منه ويعود إليه .

فالتوحيد عقيدة وعمل . وعلى هذين الأصلين يقوم الدين ومن اعترف بوجود الله وأثبت له الصفات المارة فقد وحّده ، ومن اعتقد أن الدين لله ليس لغيره مهما كان فى الدين ، فقد اعترف بتوحيده ، ومن عمل لله عملا لم ير لغيره فيه حقا فقد وحده ، ومن سلم أمره إلى الله وفوض إليه الأشياء ، وتوكل عليه وخافه دينا فقد وحده ، ومن عمل عملا رجا فيه الجزاء من غير الله فقد أخطأ فيما صنع وارتكب مركباً وعراً .

فالله مع القريب والبعيد والصغير والكبير ، لم يخلق الخلق عبثا ، ولم يترك أحداً منهم سدى ، ولم ينس مخلوقاً مهما كان فى لجج البحار أو أطباق الأرض ، أو بين السماء والأرض ، فهو المطعم وهو الساقى ، وهو الكاسي والمصح والممرض ، وهو الذى وضع الأسباب وهيأ المسببات ، وكل ذلك من التوحيد والحمد لله .

الحلقة الرابعة
في الرؤية وما جاء فيها[1]

لا يخفى ان القول بالرؤية يهدم التوحيد من أساسه، ويقضى عليه من أصله ، فإن الرؤية توجب الحلول والله منزه عنه ، وتثبت التحيز ، وتقرر الظرفية وتحقق التلون ، وتقضى بالجهة ونحو ذلك ، فهذه كلها قوادح فى صحة الألوهية يتعالى الله عز وجل عنها، ولم تبق صفة من الصفات الإلهية ثابتة على أساسها ولا قائمة على قواعدها ، فالذى يُرى لا يصلح أن يكون ربًّا ، فإن الرؤية للمخلوقات ، ورب الأرض والسموات منزه عنها ، والتكييف لا يليق بجلال الله وعظمته وهو من لوازمها ، والتمييز للذات العلية غير ممكن ، والقائل بالرؤية مخطئ خطأ لا يغتفر أو يتوب إلى الله ويستغفره ، وما ورد مثبتا لها فقد أنكره المسلمون وحكموا بوضعه ، فإن أصله من دسائس اليهود لعنهم الله .

ولقد كنت كتبت فى الرؤية كتاباً جمعت فيه ما يقوله الذين يقولون بالرؤية ، وما يستدلون به وما يقوله النافون لها وما لهم من أدلة ، وأضفت إليه القصائد البلكفيات[1] السبع ، وكنت حملته معى فاطلع عليه الإمام الخليلي[2] رحمه الله ، فأخذه لينظر فيه فاختلس منه ولم يعلم من اختلسه منه ، فضاع الكتاب مع ما ضاع من مخطوطاتنا ، وعسى أن لا يضيع أجر عملنا مع الله عز وجل . ثم فى هذه الآونة أراد منى الولد النجيب أفلح بن حمد بن سالم الرواحي[3] ، أن أجمع له من هذا المقام ما يحضر ، لما تلقاه من بعض الناس الذين يقولون بالرؤية ويتبجحون بها ، ولو تحققوا لعلموا أن الأمر جالل والإقدام عليه عظيم ، لأن الكلام فى صفات العلى العظيم .

وها نحن نسوق من ذلك هنا جملاً يتجمل بها المقام ويتضح بها المرام، إذ تعبر عن صفات ذى الجلال والإكرام ، ونستعرض الأدلة التى فيها النزاع ، يقول نبى الله موسى فى مناجاته لربه : (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين)[1] و (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا)[2] ، وهذا الميقات الذى ذكره موسى عليه السلام هو الذى ذكره عز وجل بقوله : (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)[3] إلخ وآخره فأخذتهم الرجفة ، أى هو وقومه الذين اختارهم موسى ليكونوا مستعدين لحضور الميقات ، إذ سألوه رؤية ربهم تنطعا عليه وعناداً ، فإنهم هم القائلون : (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة)[4] واختبارهم موسى عليه السلام لحضور الميقات ليسمعهم منعها فى حقه ، فكيف بهم وموسى نبى الله عليه السـلام وكليمه ، فإذا امتنعت فى حقه فمن باب أولى تمتنع فى حق غيره :

وقوله : وكلمه ربه أى أسمعه كلاماً مضافاً إليه ، ولن يقدر مخلوق مهما كان مقامه أن يتكلم على لسان الله عز وجل ، وإن كبح الكبر والبطر بأحد فحاول ذلك لن يفلح ، فإن الله عز وعلا يعجل له نقمته . وهذه الآيات تهدد سائل الرؤية وترميه بالصواعق التى تنزهق لها الأرواح، فقوله عز وجل : (لن ترانى) هو نفى أبدى لا يمكن وجوده فى حال من الحال ، فإنه لو جاز أن يرى فى الآخرة لجاز أن يرى فى الدنيا ، لأنه هو الذى فى الدنيا هو أيضاً نفسه فى الآخرة ، فهو رب الدنيا والآخرة . وقوله

عز شأنه : (ولكن انظر إلى الجبل) هل يقدر أن يستقر إذا تجلى الله له مع أنه أعظم من موسى ولا عقل له يتصور به عظمة ربه ؟ فلما تجلى له جعله دكًا وخرموسى صعقاً لاندكاك الجبل مغشياً عليه من خوف ما رأى من الواقع على الجبل ، وصعق عليه السلام من هول الحادث ، ولذلك لمـا أفاق قال :(تبت إليك وأنا أول المؤمنين) أى المصدقين بأنك لاترى ، وكذلك أرجف بالقوم كما قال الله جلت قدرته : (فأخذتهم الرجفة) أى الكل تزعزعوا لتلك الرجفة التى أرسلها الله عز وجل .

وقال موسى عليه السلام متضرعاً إلى ربه :(رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) وقوله :(أهلكتهم من قبل) أى من قبل الميقات ، وقام عليه السلام يُعاتب ربه حين قال : (تهلكنا بما فعـل السفهاء منا) فسفههم حيث طلبوا من ربهم ما منع منه عباده ، وأضاف موسى عليه السلام الفعل إليهم إذ قال :(بما فعل السفهاء منا) لأنهم هم الطالبون للرؤية وهو طامع فى إسلامهم كطمع نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى إسلام أولئك العتاة من العرب ، فالتفت إليهم ولم يلتفت إلى ابن أم مكتوم فعاتبه فيه ربه فى سورة(عبس)،ولذلك أيضا سماها موسى عليه السلام فتنة حين قال :(إن هى إلا فتنتك) وما هى فى الحقيقة إلا عقوبة لهم لأجل عنادهم، ثم سماها ضلالا أيضاً ، والضلال موجب للعقاب . ولذلك خرموسى عليه السلام مبهوتاً مرتاعاً من سطوة الله جلت قدرته ، لأنه يعلم أن سؤال مثل هذا عظيم :

ولذلك أيضاً لما أفاق من دهشته قال :(سبحانك) أى تنزيهاً لك من

الرؤية ، قال :(تبت إليك) أى من سؤالى هذا؛ والتوبة لاتكون إلا من ذنب فى مثل هذا المقام الهائل الحرج الذى لاينبغى لأحـــد أن يتجاسر عليه مهما كان ، وكل ذلك فى غاية الوضوح والظهور إلا عند من لا عقل له .

ومن أدلة القائلين بالرؤية من الكتاب قوله تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)[1] وهؤلاء أخطأوا فى التأويـــل من نواحى : أولا قوله :(يومئذ ناضرة) إشار إلى يوم القيامة وهم يقولون : إن الرؤية تكون إذا دخـــل أهل الجنة الجنة وتلقوا النعيم المقيم والفضل العظيم ، دعاهم الله إلى زيارته وتجلى لهم عياناً ، فقال لهم : ألم أنعم عليكم الحديث فيتجلى لهم ، فما كان شىء أحـــب إليهم من رؤية الله ، وهذا يرده العقل الصحيح والذهن الرجيح ، حيث فيه الإحاطة والتمييز والتلون ، ووجود الجهة التى تكون رؤيته فيها إلى أشياء عديـــدة من كون الوجه هو الرائى ، وغفلوا عن أن الآية تخبر أن الناس يوم القيامة يكونون صنفين :

صنف أشرق السرور عليه بتلقى بشارات الرضا من أول يوم ، فهو مسرور مشرق الوجه طبعاً ، فإن ذلك الرضا الذى يرى العبد البشرى به يكسوه من الغبطة والفرح مالايوصف ، لأنه سيصير إلى نعيم مقيم وملك لا يبلى ، وعز لا يتغير ، فهو مسرور بذلك ويبقى ينتظر الأمر بالمصير إليه ، وهذا أمر طبيعى محسوس ومعقول أن من وعده السلطان بالمنزلة العالية والكرامة الوافية يبقى مبتهجا ينتظر ذلك الموعود بنشاط .

والصنف الثانى من الناس الذى تلقى بشرى السخط والغضب يبقى

كئيباً متغير الوجه ينتظر ذلك الوعيد فى روعة ورعـــب يكاد تنشق مرارته من الخوف ، ومعنى ناظرة بالظاء منتظرة حلول تلك الكرامة التى جاءت بها لهم البشرى من الله عز وجل ، فهم يتشوفون لهـــا ويتطلعون إليها ، فهى من خصوصيات الصنف الأول الموعود بالخبر من الله .

وأما الصنف الثانى الذى قال الله عنـــه : (ووجوه يومئذ باسرة)[١] أى كالحة (تظن) أى حين رأت بشرى السوء (أن يفعل بها) الفعل الشنيع الذى دلت البشرى عليه (فاقرة) أى هالكه ، لأن أهل الآخرة فريقان هما من سرّته البشرى ومن ساءته ، فريق فى الجنه وفريق فى السعير .

وقولهم : إن الرؤية التى بمعنى الانتظار لا تعدى بإلى ليس بشىء ، بلى جاءت معداة بإلى فى الكتاب والسنة ، وإشعار العرب الذين هم حجة العربية .

ومن أدلة القائلين بالروية بل مما تكلفوه فى قوله تعالى : (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)[٢] أى لا تيحيط به ، ففسروا الإدراك بالإحاطة والمعنى لا تحيط به ، بل تراه ولا يتم لهم ذلك لرده بالمعقول والمنقول ، فلا نطيل به المقال ، واستدلوا أيضاً بلفظ الزيادة فى قوله عز وجل : (لهم الحسنى وزيادة)[٣] ، قالوا الحسنى الجنة ، والزياده رؤية الله عز وجل ، وهذا مردود أيضاً بالعقل والنقل ولا يخفى بعده من الحق ، ولقد أشبعنا القول فى الرؤية عن أهل العلم فى كتابنا « إيضاح المنار »[٤] فى عدم رؤية الجبار :

نسأل الله أن يجعله حجة واضحة ترد الباطل ، ومعولا حاداً يكسر ضلال كل جاهل ، والله يجب تنزيهه عما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى ، فإن القول بالرؤية من نوع القول بالمتشابه على ظاهره ، فإن هذا كله يقدح فى ذات الله وما يقدح فى ذات الله فهو كفر وضلال ، نعوذ بالله من سوابق الشقاء ، ونسأله العون على طاعته ، وأن يمنحنا الهدى فإنه من يهدى الله لا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له والله حسبنا ونعم الوكيل.

أعداء المذهب الأباضى فى الإسلام

لا يخفى أن أعداء الحق فى العالم هم الأكثرون ، والطاعنون فى المسلمين هم السواد الأعظم ، ألا ترى قريشاً وهم العدد الوفير ومحمد عليه الصلاة والسلام ومن معه هم العدد اليسير ، وكان مع قريش الضلال وعند محمد عليه الصلاة السلام الهدى والتقوى ، فكان محمد الممقوت تضاف إليه الصفات المستقبحة كالكذب والجنون والسحر ونحوها لقصد التنفير منه والابتعاد عنه ، حتى لا تقوم له قائمة فى العالم ، فتنفر منه الطباع وتبتعد عنه الأخبار ، ومضى على ذلك عهد غير يسير فناله فى ذلك العهد الأذى والشتم والتقبيح وسوء الأحدوثة ، حتى أظهره الله على أعدائه ، وسلطه على كبح جماح البغى والفساد فى الأرض ، ليظهر الله به حجته على عباده ، ويقيم به دعوته فى بلاده ، حتى تمت حجة الله على الخلق ، وأقام الله به على ذلك أعمدة الحق ، حتى لا يقولوا يوم القيامة : «ما جاءنا من بشير ولا نذير»[1] : لقد جاءكم بشير ونذير فكذبتم ، وجاءكم الهدى فأعرضتم ، وجاءكم الحق فلم تقبلوه . وكذلك المذهب الأباضى لقى من أعدائه ما لا تحمد عقباه ، ولا يرضى به ولن يرضى ما ينسبه إليه أعداؤه ، ولكنه يحتمل فى جنب الله كل ما يسمع ، ويرى ويمر على ذاك بسلام ، لأنه يعلم أن الحق له أعداء لا يقلون عدداً ولا يضعفون مدداً ، وقد كتب أعداء هذا المذهب كل منهم ما يحب ويهوى ، ولا يلتفت المذهب إلى هؤلاء القائلين أو الكاتبين ،

بل يقول كما قـال الأول من أهـل الصدور الواسعة والعقول الرزينة :

فمن صد عنّا حسبه الصد والجفا
ومن فاتنـا يكفيه أنا نفوته

ولا شك أن الإعراض عن أهل الأهواء وأهل الزيغ يكفى أن يكون جواباً ، لأن الجواب القولى لا يقنع أحدا ولا يقتنع به أحد ، بل يزيد شقة الخلاف ، ولا يزال يوسع مسيرة التباعد ويشنّع على النفوس بما يثير نعرتها ، ولذلك ترى المذهب الأباضى لا يطعن فى أحد ولا يلعن أحداً ، ولا يقدح فى أعراض الناس ولا يرى إلا الحق شيئاً يجب أن يعتنى به ، فالذين يقدحون فى المذهب أكثرهم غلب عليهم سوء الطوايا ، وأغلبهم طغى بهم الحسد وحرّك بعضهم التبجح ، وهجم ببعضهم سوء النوايا حتى نسبوا إلى الأباضية مـا هم أبرياء منه ، وأضافوا إليهم مـا ليس هم منه فى قبيل ولا دبير ، وأضاف إليهم بعضهم ما لا يرضى من القول . وما كان بالأباضية قصور ولا تقصير ، ولكنهم يفضلون التمسك بقول القائل :

ولقـد أمر على اللئيم يسبنى
فعرضت ثمت قلت لا يعنينى

وهكذا شأن رجال الأباضية فى أغلب أحوالهم ، ولا يوجد عنهم طعن أو قدح فى مذهب من المذاهب ، لأن الطعن أو السب لم يرد عن الشارع ولا أمر به فى حال من الحال ، وكان رسول الله عليه الصلاة

والسلام يسمع من قومه الكثير وكأنه لم يسمع ، وبذلك امتاز على غيره حتى قال الله له : (وإنك لعلى خلق عظيم)[١].

فإذا أردنا أن ننقل عن الطاعنين فى المذهب ضاق بنا المقام وبعدت شقة سفرنا فى هذه الناحية الشاسعة السوداء المظلمة التى يتلون فيها الحريت ، ولا شك أنا نفضل المرور بسلام فنسكت عن كل قائل ونعرض عن كل ناقل ، ونكل الناس إلى الله ، وعلينا أن نكشف النقاب عن وجه الحق ونبرزه مجلوًّا يضىء حوالك الجهل ، فمن وفقه الله للهدى ورأى الحق فاتبعه وعرف الباطل فاجتنبه ، فذلك فضل من الله وتوفيق منه للصالحات والله على لسان كل ناطق والله المستعان .

(١)

الحلقة الخامسة

فى الولاية والبراءة الشخصيتين

اعلم أن الولاية والبراءة نوعان ، وكل نوع منهما ينقسم قسمين : هما ولاية الأشخاص وولاية الجملة ، وبراءة الأشخاص وبراءة الجملة ، ولا يخفى أن الولاية والبراءة تجبان للأفراد كما تجبان للجماعة ، ومن خصهما بالجماعة دون الأفراد وقع فى قصور وتقصير ، فإن الله سائل يوم القيامة كل نفس عن أعمالها ومجازيها على أفعالها ، ولاوجه لاختصاص الجماعة بحكم هذه صفته ، وقد أوضح الله الكريم فى كتابه الذى هو الصراط المستقيم الولاية لشخصية والبراءة الشخصية ، كما أوضحها فى الجماعة .

يقول الله عز وجل حاكيا عن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، إذ يقول فى أبيه : (فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه)[1] ، ثم أثنى الله على إبراهيم على أثر ذلك فقال : (إن إبراهيم لأواه حليم)[2] ، وكذلك قال الله عز وجل فى البراءة الشخصية حيث قال : (تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ما له وماكسب . سيصلى ناراً ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد)[3] ، لأن أصل الولاية الموافقة فى الدين ؛ وأصل البراءة المخالفة فيه ، فكل موافق فى الدين فهو ولى وكل مخالف فيه فهو عدو ، سواء علمت بالموافق فى الدين أو جهلته ، وهكذا المخالف فيشمل ذلك من علمت ومن جهلت ، ومن حضر ومن غاب .

ولهذين الأصلين ثمرة : فثمرة الموافق محبته وإعانته ومناصرته وتأييده عدوه والركون إليه ، وبضد ذلك المخالف ، ولا يستقيم الدين بغير ذلك ، وقد صرح بهذا القرآن العظيم والنبى الكريم حتى الولاية اللغوية . قال الله عز وجل :

(وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) [١] ، وإن كان هذا من قبيل الولاية اللغوية كما أفدتك ، إلا أنه يوجب المناصرة لنسبة الإسلام للمستنصر بالمسلمين .

ومن ولاية الأشخاص ولاية أم موسى وامرأة فرعون ، وكذلك مؤمن آل فرعون والرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى ، وفى البراءة ما يقابل هؤلاء كالذى حاج إبراهيم فى ربه ، وكالذى جاء فى قوله تعالى : (والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها) [٢] فهذه أدلة واضحة كالشمس ولاتوجد هذه الأحوال إلا مع الأباضية ، والولاية من الأمور المفروضة فى الدين كالبراءة لمن اتصف بصفتها ، توجه إليه حكمهما ، قال الله عز وجل فى كتابه الكريم : (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) إلى أن قال : (إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) [١] ، وفى ولاية الجملة أيضا قوله عز وجل : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) [٢] ، فأوجب الله جل شأنه معرفة وحدانيته عز وعلا ، ثم أمر بعد ذلك بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات .

ولا يخفى أن وجوب الاستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، موجب لولايتهم إذلا معنى للأمر بالاستغفار للمؤمنين والمؤمنات فى مثل هذا المقام إلا الوجوب ، ولا يصح الاستغفار لغير الولى ، ألا تسمع ذا الجلال والإكرام يرسل العذر لنبيه إبراهيم عليه السلام : (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه) [١] ، إذ قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : (سوف أستغفر لك ربى) [٢] فالولاية واجبة على جميع المكلفين كوجوب سائر التكاليف من غير فرق

لاقترانها بالأمر بمعرفة وحدانية الربوبية ، وقال الله عز وعلا فى النساء : (فبايعهن واستغفر لهن الله)[١] أى اسأل لهن المغفرة من الله .

فالاستغفار لهن موجب لولايتهن قطعاً ، لا يقال إن هذا أمر خاص للنبي عليه الصلاة والسلام ، فإن قرائن الحال دالة على دخول الأمة معه فى هذا الحكم ، وفى الآية الأخرى يقول الله تبارك وتعالى : (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا)[٢] ، فمنع الله من ولايتهم حيث بقوا على العصيان بعدم الهجرة المفروضة عليهم ، وقال الله عز وجل : (والكافرون بعضهم أولياء بعض)[٣] ، فنفى أن يكون المسلمون لهم أولياء ثم قال : (إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير)[٤] أى إذا لم يوال المؤمنون للمؤمنين ولم يعاد المؤمنون للكافرين تكن فتنة وهى القتل ، وتطاول أيدى الباطل على أهل الحق ، ويظهر الكفر على الإيمان وفى هذا غاية الفساد والله المستعان .

ولا يخفى أن البراءة تجب من أهل المعاصى مطلقا سواء كانت كبائر كفر نعمة أو كبائر شرك ، كما نص على ذلك القرآن وإجماع المسلمين مطلق على ذلك .

والبراءة الشرعية توجب البغض ، أى أن البغض ثمرة البراءة من أهل المعاصى مطلقاً ، [وكذلك الشتم ، أى شتم العاصى لعصيانه ولعن الكافر لكفره . قال الله تعالى : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده)(١) فقد

(١) سورة الممتحنة آية رقم ٤ .

صرحت هذه الآية كل التصريح بالائتساء بإبراهيم ومن معه من المؤمنين ، إذ قالوا أى حين قالوا فى حال قولهم إنا برآء منكم ، أى متبرئون منكم ومن معبودكم الذى تعبدونه بغير حق حتى تؤمنوا ، فجعل الإيمان غاية لهذه البراءة .

فالإيمان بالله وحده يتضمن توحده وعدم الشريك معه ، فالآية بمفهومها تنعى على الذين لم يأتسوا بإبراهيم كل الائتساء به وبمن معه من المؤمنين ، وهــذا هو المؤمن الصحيح الإيمان ، وهو أن يحب فى الله ويعادى فى الله ، ولا يلتفت إلى نسب أو قرابة أو نحو ذلك من رياش الدنيا ، فإن مصير الكفر إلى النار ، وعلى المســلم أن يتباعد منه ومما يصير إليه باجتنابه ، ومن حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه .

وفى الحديث القدسى : « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة »[1] ، وفى آخر — حديث قدسى أيضاً — يقول الله لعبده : « هل واليت لى ولياً أو عاديت لى عدواً »[2] فإن معاداة الولى عظيمة عند الله عز وجل ، وكذلك موالاة العدو فإنها بنص القرآن ، فهى كبيرة من كبائر الذنوب تجب البراءة من فاعلها ، ومن يتولى البغاة والفساق وأهل الكبائر فهو منهم ، وحكمه حكمهم لقوله تعالى : (ومن يتولهم منكم) أى معشر المسلمين ، (فإنه منهم)[3] أى حكمه حكمهم ، والمعنى من تولاهم وجبت البراءة منه ، لأنهم هم فى البراءة ووجوب البراءة من أعداء الله ثابت إجماعا ، وإنما خلافهم فى الأشخاص .

وقد بينا دليل الأباضية فى ذلك ولهم فى موارد الولاية والبراءة ثلاثة أحوال هى الحقيقة والحكم بالظاهر من الأحوال ، والحقيقة فى الجهتين ، والثالث الوقوف فى من أشكل أمره لقوله تعالى : (ولا تقف ما ليس

لك به علم[١] والحديث: « الأمور الثلاثة أمر بان لك حقه فاتبعه ، وأمر بان لك غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فقف عنه »[١] ونريد بالحكم بالظاهر ولاية الجملة وبراءتها وولاية الحقيقة موجبة وكذلك البراءة بالحقيقة، وأحوال الوقوف أقواها وقوف الدين وهو فيمن لم يعرف منه حق أو باطل ، والرأى فى الولى إذا ركب محجوراً ووقوف الرأى فيمن أتى بأمر لم يعرف حكمه من الحق أو من الباطل والله أعلم .

الحلقة السادسة

فى حديث الافتراق

لايخفى أن الله عز وجل قضى على الأمة بالافتراق بعد نبيها، كما أخبر الله عز وجل بذلك فى كتابه الكريم إذ قال : (ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)[1] أى اقتضت حكمته تعالى بافتراقهم ليتميز المحق من المبطل ، ويتبين أهل الإيمان من سواهم ، فتكون بذلك منازل السعادة عنده للمؤمنين وينزل إلى مدارك الشقاوة أهل الباطل من القوم الكافرين ، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن افتراق أمته بعده ، كما افترقت الأمم قبلها . قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « بلوت اليهود فوجدتهم قد كذبوا على أخى موسى فافترقوا على إحدى وسبعين فرقة كلها هالكة إلا واحدة ناجية وهى التى فى قوله عز وجل :(ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)؛ وبلوت النصارى فوجدتهم قد كذبوا على أخى عيسى فافترقوا على اثنتين وسبعين فرقة كلها هالكة إلا واحدة ناجية وهى التى فى قوله جل شأنه: (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لايستكبرون) وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا واحدة ناجية »[2] قالوا يارسول الله صف لنا من هى . قال : « ما عليه أنا وأصحابى »[3] أى الذين يثبتون على ماأنا عليه وأصحابى ويسيرون بسيرتى ، ويستنون بسنتى ويتبعون أثرى. لاينحرفون عنه قيد شعره ، ولايبدولون أمراً من أمره عليه الصلاة والسلام هان الخطب أم عظم ، فلا قيصرية ولاكسروية ولا جبروت إلاعند ما يكون الباطل جباراً عنيداً .

والحديث رواه أئمة الحديث كأبى داود والترمذى وصححه إذ قال حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه عن أبى هريرة مرفوعاً وهذا نصه عنده : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى كذلك ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة ناجية » قالوا من هى يارسول الله : « قال ما أنا عليه وأصحابى » اهـ وما عليه هو وأصحابه عليه الصلاة والسلام ورضى الله عن أصحابه معروف وهو على الإجمال الاستقامة فى الدين والخضوع لأوامر رب العالمين فى الدقيق والجليل ، فلا ظلم ولا جور ولا بغى ولا انحراف عن المشروع مهما كان ، وروى الحديث أيضاً ابن حبان والحاكم فى صحيحيهما بنحو مامر ، وقال الحاكم إنه حديث كبير فى الأصول ، وجاء أيضاً من طرق متعددة فقد جاء من طريق سعد بن أبى وقاص وابن عمر وعبد الرحمن بن عوف ، وعن أبى الدرداء وعن معاوية بن أبى سفيان وواثلة بن الأسقع ، ورواه الربيع بن حبيب عن أبى عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضى الله عنهم ، فثبت سنده العالى وصحت طرقه ، فلا مقال فيه إلا الصحة .

وأشار بقوله عليه الصلاة والسلام : « كلهم إلى النار » فى رواية الإمام الربيع ، أى يصيرون إليها والعياذ بالله ، وذلك لخلافهم للحق الذى أوجب الله عليهم اتباعه ، ومن ترك الواجب القطعى فهو هالك قطعاً لأن الله عز وجل توعد على خلاف الحق ، وواجب على ذلك النار .

وفى بعض طرق الحديث : « وكلكم يدعى تلك الواحدة » وفى حديث البقيع ما يؤيد ما نقول وهو واضح .

وأول باب فتح لافتراق الأمة فتنة عثمان ثم تلتها فتنة صفين (١) إذ نكث طلحة والزبير بيعة علي بن أبي طالب ، وفر النهروانيون بعد خلع علي وتسلط على الأمر غير أهله ، فكانت وقعة النهروان ومنذ ذلك العهد وبذر الافتراق ملأ فضاء الإسلام ، وإذ ذاك قام الملك العضوض الذي يعرفه كل أحد ومن هنا قام منادى الافتراق يدعو للشقاق والنفاق ، ودخل العلماء بيوتهم وأغلقوا أبوابهم على أنفسهم ؛ إذ ساءهم الحال ولم يروا إلا من يعض على الملك بأنياب الافتراس ، ومن يستبيح حرم رسول الله عليه الصلاه والسلام ولا يبالى ، وفضت الأبكار وهتكت الأستار وهمّ أن يفعل نفس الفعل بمكة المكرمة ، ومن يلقى القرآن فى الحوالق ، ومن يقول له هذا فراق بيني وبينك ، وحينئذ لم يبق لأهل العلم حق ، ولا لأهل الإيمان عون ، وإذ ذاك قامت دواعي الاعتزال ووضعت الألقاب وحصل التباعد وشاع نبز البعض للبعض ، وقام التمذهب وحصل التأييد لأناس والتنديد بناس ، وكل القوم على حنق يثيره ذوو السياسة المفرقة وأهل الرئاسة الممزقة تصديقاً لقول الرسول عليه الصلا والسلام ، حيث يقول : وكلكم يدعى تلك الواحدة ، والدعاوى منها ما كان على حق ، ومنها ما كان على غير ذلك .

وإذا أراد الإنسان أو الفريق أو أهل مذهب أن يعلم هل هو ما عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأصحابه رضوان الله عليهم فلينظر فى القرآن ، وليعلم هل هو سالك طريق الحق فيه عاملا بما جاء به متبعاً لسنته ، قائماً بواجباته آخذاً بما يدعو إليه داعياً إلى الله بحسب مقتضى أوامره غير مصر على باطل ولا سالك سبيلا ، نائية عن أوامره غير

---

(١) فتنة الجمل اهـ .

متعصب لباطل ولا مقلد لهوى مواليا لأهل الحق ، معادياً لأهل الظلم صابراً محتسبا لله آمراً بمعروف دعا الله إليه ، ناهيا عن منكر أمر الله بالبعد منه قائماً بحدود الله ، ثابتاً على منهاج العدالة غير محاب ولامداهن ولا راض بما لا يصح به الرضا مع الله ، سالكا مسالك أهل الإيمان ، سامعا مطيعا لدعوة الله عز وجل ، لايخاف فى الله لومة لائم ، يقول ويفعل فيما يرضى الله عز وجل ، لا يداهن فى الدين ولا يقتنع بالألقاب الفارغة ، ولايفارق القرآن فى حله وترحاله ، ولا يتبع لهوى الأنفس ، فإن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها لما سئلت عن خلق النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، قالت: «كان خلقه القرآن»[1] ، أى كان متخلقاً بالأوامر التى فرضها القرآن لم يحد عنها قيد شعرة .

وهذا الوصف من هذه السيدة المصونة ينزل على أعلى ذروة فى البلاغة ، فلله درها من سيدة عربية تتكلم بأجزل الكلام وأبلغه .

ولا يخفى أن من كان على الصفات التى كان عليهـــا السيد المصطفى وأصحابه من أى الأجناس ، فهو المسلم الحقيقى الصحيح الإسلام الثابت على الأركان الإسلامية ، سواء كان أباضياً أو حنفياً أو شافعياً أو مالكياً أو حنبلياً أو أو أو . فإن الحق هو اتباع القرآن وامتثال أوامر السنة النبوية وآثار السلف الصالح المعتمد على الكتاب والسنة ، فليس للألقاب عند الله معتمد صحيح أيا كان .

ولكن لمـــا كان الأباضية لا يعتمدون إلا على الكتـــاب والسنة وإجماع الأمة المحقة ، ولا يبالون بما عدا ذلك كانوا أولى بأن يوصفوا

بالحق وباتباع الحق وبالقرب من الحق ، كما يقول بعضهم فإن الأباضية يفرون من الباطل ولا يعدون المبطل إلا جارماً على الحق ، ولا يعتمدون أئمة الفسق ، ولا يخضعون لدعاة الفساد إلا إذا كانوا مجبودين ، ومن يقرأ تاريخهم يعترف لهم بما قلنا إن لم يغط عى قلبه داء الحسد ، وإذا حسدونا فى الدنيا ونحن على حق فلن يقدروا أن يحسدوننا يوم القيامة ، وإذا جئنا إلى الله والحق معنا فلن يضرنا شىء أبداً مما عليه غيرنا .

وملوك الأباضية معروفون بإتباع الحق فى الأزمات التى تواجههم : انظر إلى جيفر وعبد إذ أسلما على يدى عمرو بن العاص صحار تخليا لديه من كل شىء ولم يعترضا عليه فى شىء ما ، بل قالا له إليك الأمر والنهى ونحن من ورائك لرد معارضيك ، وسلما إليه قبض الصدقة . وكذلك لما تغالط جابى الزكاة وامرأة من آل لقيط بن الحارث ابن مالك بن فهم وظنهم الجابى مرتدين فصال عليهم فقبض الكثير منهم وخرج بهم إلى المدينة ، ولم يعترض عليه أحد من قومهم ، بل سار زعماؤهم خلفهم حتى تلاحقوا بالمدينة لدى الخليفة أبى بكر ، وشكوا إليه أمر عامله وما صنع ، وأنهم لم ينزعوا يداً من طاعة وصح ما قالوه ، فهدد عمر بن الخطاب رضى الله عنه عامل أبى بكر على فعله ، ورد القوم إلى بلادهم محترمين موفرين من بيت مال المسلمين ، إذ أعطى عمر بن الخطاب كل فرد منهم ثلاثمائة ثلاثمائة ، ولو كان أهل عمان مرتدين لم يقدر المصدق أن يفعل فيهم شيئاً ، وهم فى بلدهم أكثر من عشرة آلاف مقاتل ، وعلى الأقل لكانت بينهم مقتلة عظيمة ، لكنه لم يكن

من ذلك شيء ما ، وهكذا كانت أحوالهم . فإن قيل إن الأباضية هم أهل الحق فغير كثير .

فهذا الإمام سعيد بن عبد الله الرحيلي[1] يواقع السلطان يوسف بن وجيه[2] في نزوى فيفقد يوسف رزة باب لاتساوى ربع دينار طلبها الإمام بغاية الجد حتى ردت على صاحبها ، فأين هذه الأعمال من أعمال من يستبيح حرم رسول الله بين يديه في المدينة المنورة ، ويبيحها لجيشه الظالم ثلاثة أيام بلياليها ، فتفتض الأبكار في بيوتها قهراً ، وتهتك الحرم جهارا . إنها قضية لاتمر على قلب مؤمن إلا احترق بنار الإيمان ، وإذا وازنت بين عمل هذا الخليع الفاسق وبين أعمال المختار بن عوف الشارى الأباضى في نفس المدينة ، كم ترى الفرق بين الرجلين وكم ترى بين جنده الذين يبيتون على المحاريب لهم دوى كدوى النحل بالقرآن ، وبين من يلقيه في الجوالق ومن يقول له هذا فراق بيني وبينك ، إنه والله لبون بعيد .

وهكذا حال هذا الجيل الموسوم بالأباضية أينما حل وأينما نزل ، تجدهم يقفون على حدود ما أنزل الله فيرضون بقضاء الله وقدره وبحكم شريعته ، لاتطبيهم الدنيا بزخرفها عندما يناشدهم الدين ، ولا يميلون إلى ممالأة المجرمين وإن رأوا في ذلك الموت ، فإن أرواحهم خلقت لفداء دينهم فيبذلونها لله تحت الأسنة قرابين ، لم يأت الدهر بمثلهم فيما علمنا ولن يبقى الدين بعدد ذهابهم أبداً إلا أن يكون أسماء لا حقيقة لها . وإذ كان ذلك فعلى الدنيا العفا والله الهادى للحق بإذنه .

أخلاق الأباضية

لا يخفى أن أخلاق الأباضية أخلاق الأنبياء والرسل ، أخلاق أهل العلم والعمل ، أخلاق أهل الصفا والوفا ، أخلاق أهل الحق والعدل ، أخلاق أهل الزهد والورع ، أخلاق أهل الجود والكرم ، أخلاق أهل الدين من المؤمنين لاطيش ولانزق ولاغلظة ولا توحش ولا تمرد ولا سخريا ولا غدر ولاغش ولا ظلم ولا جور ولاجبروت :

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم
مثل النجوم التى يسرى بها السارى

إذا عاهدوا وفوا ، وإذا وعدوا كذلك ، وإذا قالوا صدقوا ، وإذا قاموا بحق أعطوه من أنفسهم كلّ ما يتطلبه ، لا يحابون الظالم ولا يهشون للمظالم ، ولايتبعون كل ناعق ولايؤيدون أهل الضلال ، ولا يسعون فى مناصرة الجبابرة ولايرضون بغير ما يرضى الله ، ولايحكمون الأهواء المضلة ولايقلدون دينهم الرجال ، ولايعرفون الحق بالرجال ، بل يعرفون الرجال بالحق ، ولا يقبلون إلا الدين الخالص ولا يطمئنون بغيره ، يبيعون النفس والنفيس فى رضا الله عز وجل ، وإن كلفهم الحال حمل الأثقال .

لهم أخلاق لاتوجد فى غيرهم من الأمم مطلقا للوافد إليهم حسن الرعاية ، فقيرهم يسبق غنيهم فى الكرم ، وصغيرهم لا يرضى دون كبيرهم ، فيه يبيع أحدهم مخنق امراته ليكرم ضيفه ، يسير السائر فيهم ما سار لا يهمه أمر إلا نفسه حيث تتقدم على الزعيم فى مطلق المجالات ، ينسى النازل معهم أهله ووطنه إذا جلسوا كأن على رءوسهم الطير ، وإذا تكلموا لم ينسوا الواجب .

والأباضية يحاسبون أنفسهم قبل يوم الحساب ، فمن كان على مثل هذا الحال فى أى أمة من الأمم وفى أى قطر من الأقطار وعلى أى حال كان فهو على الحق ، ومن عاش عبداً لله مستقيما كما أمر الله فهو العبد الصالح ، ولا تغنى التسميات الفارغة أو الألقاب الصاخبة فتيلا ولا نقيرا ولا حسب ولا نسب إلا بالدين (ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[١] ، ولفظ الإنس يشمل هذا الجنس بقطع النظر عن الادعاءات والانتسابات مع الباطل ، يقول الله عز وجل لنبيه : (وأنذر عشيرتك الأقربين)[٢] ، أى حتى لا تقول لهم أنفسهم إنكم أقارب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فإنه لا أثر للقرابة إلا مع الدين والإيمان ، وما من نفس منفوسة إلا هى مسئولة عن عملها ، (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[٣] .

إن الأباضية أتقى الناس وأصدقهم فى الأقوال والأفعال ، وأثبتهم على طاعة ذى الجلال . يقولون الحق وإن كان مرا ، ويعملون به . ويرى الأباضية بقية أهل المذاهب مسلمين لا يتعرضون لعقائدهم بشىء ، ولا يقدحون فى أعمالهم مما لا يخالف دليلا قطعيا ، ولا يخرج عن أقوال أهل العلم وله احتمال للصحة ، فإن الله لم يأمر بنقض ما جاء عن الله فى كتابه الكريم ، أو جاء على لسان نبيه العظيم ، أو أجمع عليه المسلمون .

وتعتبر زعماء المذاهب الإسلامية علماء الإسلام ، ولا يرون لهم عصمة من الأخطاء والأغلاط البشرية ، كما لا يدعون ذلك لأنفسهم ولا عصمة إلا لنبى أو رسول ، كما أجمع على ذلك أهل الحق والعلماء الذين وصفهم الله بأنهم يخشونه ، فهم الحجة على عباده وإن نسب إليهم ما يخالف المعقول أو يباين المنقول ، فيجب أن يحاشى مقامهم وتنزه أنفسهم من غير أن يقبل

فيهم غير الحق ، فإن النفوس الخبيثة لها أغراض خاصة تحملها على الدس والغدر والخيانة ، ووضع أشياء تأمل منها البلبلة واختلاف الآراء لاسيما أعداء الإسلام الذين يسوءهم ازدهاره . ولايوجد للأباضية خاصة طعن فى مذهب أو قدح فى عقيدة مهما كانت خصوصاً التى يكون من شأنها إثارة حقد أو ضغن ، ومن كان علم شيئاً من ذلك فليقل ، وكم قيل فيهم وكم حررت الصحف والمقالات التى من شأنها التباعد وإثارة الشقاق ، وإذا سألهم سائل عن الواجب أفادوه عن صحة وبيان بالدليل والبرهان اللذين يسلم لهما العقل الصحيح والفكر الرجيح ، ويخضع لهما النهى المستنير ، وإذا لم يقتنع السائل تركوه وشأنه ، فإن له ربا يمهـل ولا يهمل يحاسب على الفتيل والنقير .

ونقول الأباضية إنهم على الحق الذى جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنهم لم يحيدوا عنه قيد شعرة ، وإنهم هم الفرقة الصالحة من ثلاث وسبعين فرقة التى ورد بها الحديث الصحيح ، ولهم على ذلك أدلة معقولة ومنقولة ، كما أن سائر الفرق تدعى كذلك ولديهـا من الأدلة فى نظرها ما يبرر مدعاها ، ومن حيث إن الأمر فى ضمير الغيب الذى لا يدركه إدراكاً مقطوعاً بصحته إلا الأفذاذ من علماء الأمة ، وغير مستحيل أن يمنح الله رضاه أمة من الأمم التى بثها الله فى هـذا الكون ، وإذا كان المسلمون كلهم إلى الجنة فلا يضر الأباضية ذلك وهم على أصلهم ثباتاً لا يتزعزعون عنه فى وقار يبهر الرائى ، ورزانة تعجب الكريم ، ودماثة يحيا معها السقيم فيصدق فيهم قول من قال :

سمت الملوك وهـدى الأنبياء على

هاماتهم فكأن الفقر تيجـان

هذا غالب أخلاقهم إلا ما كان من خليط بغيرهم ، يتأثرون بأخلاقه تأثير العدوى فى الأمراض ، وقد شهد ويشهد لهم من خالطهم ، وهذه هى صفات المؤمنين ، فإنك إذا عرضت صفاتهم على المختبر الشرعى رأيتها مستمدة من أصول الدين نابعة من مراشد سيد المرسلين ، آخذة منهم باليسار وباليمين ، إلا فى الشاذ من الأحوال والشاذ لا حكم مهما كان والله المستعان :

وطن المذهب الأباضى

لا يخفى أن المذهب الأباضى كان وطنه الأصلى البصرة إذا كانت جديدة العهد بالعمران الدينى كما هى جديدة بالعمران الحسى ، إذ كان قيامها بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رحمه الله، وكان العمانيون بها كثيرين، بل كانت ذلك العهد عمانية أباضية فهى عمانية برجال عمان الهداة ، وهى أباضية بأعلامها التقاة : مثل أبى الشعثاء والخليل بن أحمد الفراهيدى ، والربيع بن حبيب ووالده حبيب بن عمرو الفراهيدى أيضاً ، وكعب بن سوار قاضيها ، وابن دريد المشهور فيها ، وصمام بن السائب أحد رواة ، الربيع ، وأبى عبيدة وأبى الشعثاء أيضا أعلام السنة، والمهلب بن أبى صفرة وأولاده .

والكثير من أهل عمان معهم أباضية إذ فيها نشأ المذهب الأباضى حيث وُلد بها وقام فيها وطار منها إلى عمان بحملة العلم الخمسة المعروفين ، ومنها خرج إلى المغرب بحملته الخمسة أيضاً ، وكذلك إلى خراسان بأمثال بشير ابن غانم[1] العلامة الأباضى صاحب المدونة ، وهلال بن عطية[2] المقتول مع الإمام الجلندى بن مسعود[3] رحمهما الله وكان قاضيه ووزيره ومحل ثقته وسيف دولته ، وإلى مصر بابن عباد[4] وأبى المؤرج وأضرابهم وإلى مكة بأبى الحر العلامة الخليل وإخوانه وإلى حضرموت واليمن بطالب الحق عبد الله بن يحيى الكندى وأنصاره الميامين ، وأبى حمزة الشاوى المعروف فى الصدر الأول .

بأمثال هؤلاء الرجال وهم كثيرون لا يمكن تعدادهم فى مختصر يسير كهذا ، وزعيم الجماعة هو عبد الله بن أباض رحمه الله .

هذه هى أوطان المذهب الأباضى فى الأصل ، ثم استوطن أوطانا

(١)
(٢)
(٣)

أخرى بعد ذلك ، وإن كان تخلى عن أوطان عديدة لسوء أحاط به وبمعادات الأعداء له ، إذ أن الحق تكرهه النفوس الطاغية غالباً وفى بلاد من أختها بدل ، ومن المحال دوام الحال ، ثم ضرب المذهب أطنابه بعمان والمغرب ، وأرسى دعائمه منذ ذلك العهد الأول حتى الآن ، لم تزل راياته خفاقة ومعالمه واضحة ومراكزه معروفة بأئمة علماء وملوك عظماء طار صيتهم فى العالم ، وقامت دولهم فى العوالم ، ورفعت راياتهم على الرءوس ، ومخرت أساطيلهم البحار ، وصارعت جيوشهم عدة أقطار ، وخضعت لهم زعماء لا يزال التاريخ يحدث عنهم ، وما زالت علماء التاريخ تتحدث فيهم ، فكان لهم بعمان أكثر من خمسة وثمانين إماماً ، وملكا لهم أهميتهم ولهم ذكرهم العطر ، وفخرهم المستمر ، وقد خاضوا البحار فاتحين وجابوا الأقطار مصلحين ، ولهم فى أرض الله أحاديث قد كتبت بأحرف من النور خالدة خلود الجبال ، ثابتة بنصوصها لا تزال .

وحتى الآن وسلطاننا الحال صاحب الجلالة قابوس بن سعيد الذى تسلسل من ملوك معروفين ، وانتمى إلى أقيال غير منكورين ؛ وها هو الآن وبيده السلاح والمصباح ، وإليه منتهى أمر البلاد التى لا يزال علمه عليها خفاقا ، وسيفه على رءوسها براقا ، واسمه على تاجها يتلألأ إشراقا ، رفع معنويتها الدولية ، ورسم شرفها على الآفاق بعزيمته القوية ، وأطار لها صيتا فى العالم الدولى حتى منتهى الخف والحافر ، وأصبحت معروفة رغم الدهر ، وإليها تنظر أعين الدول النظر الشرز ، فأكرم به سلطانا على كرسى عريق مجدا وسؤددا ، وأعزز به هماما مهماما تقدره الأعداء ، ومن يمن الطالع لعمان وجوده بها ، ومن حسن الحظ اهتمامه بحقوقها أيده الله وحمى به الوطن والدين على رغم القوم الكافرين .

وهنا نريد أن نستعرض شيئاً من خطب أبى حمزة الشارى المختار ابن عوف رحمه الله ورضى عنه التى خطب بها فى مكة لما دخلها فاتحا لها ، ودخل المدينة المنورة كذلك ، ونعلق عليها ما يوضح معانيها ويبرهن عن

مقاصدها، ليعلم الناس مقاصد الأباضية ونوايا زعمائها على نزاهتهم وحسن نواياهم ، ويقابل بها العاقل بين أعمال الآخرين الذين تولوا هـذه البلاد قبلهم وبعدهم ، ولينظر الفارق بين الأفعال يجد أعمال الأباضية ناصعة فى النزاهة ملازمة لمقتضى الكتاب والسنة ، تابعة لآثار السلف الصالح ، غير راضية عن أعمال الذين فعلوا ما شاءوا تبعاً لهواهم ، متغطرسة فى أوجه الأمة ، وهناك يعلم المفسد من المصلح وبضدها تتبين الأشياء . وبالحق تقوم حجة المحق وبها يكون له مقام عند الله عز وجل ، وبها أيضاً يؤاخذ الله عباده .

وقبل إيراد المقصود نذكر كلمة وجيزة عن صاحب الخطب المشار إليها فنقول : إن المختار بن عوف رضى الله عنه ، كان من أهل عمان من الباطنة من خصوص قرية مجز بكسر الميم وفتح الجيم بعدها زاى معجمة من أعمال صحار ، وكنيته أبو حمزة فأكرم بهذه الكنية التى يتبادر منها معنى حمزة أسد الله ، وعم النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، سيد الشهداء ؛ ولقب أبى حمزة المعروف به عند الخاص والعام الشائع شيوعاً عاماً ، الشارى. وأكرم بهذا اللقب الذى يعرب عن معنى لا يليق إلا بخيرة الرجال والسادة الأبطال من أمثاله .

نسب أبي حمزة رضى الله عنه

هو المختار بن عوف :

كان المذكور من أهل قرية مجز كما قدمنا ، وانتقل إلى البصرة لطلب العلم من السيد الضرير أبي عبيدة العلامة النحرير ، وعاش فيها عهداً حتى إذا آن أوان إمامة طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندى رحمه الله ، أرسله أبو عبيدة مدداً لطالب الحق فى ثلاثمائة رجل من أباضية البصرة أيام كانت البصرة أباضية مذهباً وعمانية سياسة ، وإلى هذا العهد يشير الإمام السالمى رحمه الله تعالى حيث يقول :

كان لنا عصر العلوم مشرقاً ... وبأفوله بدا من فسقا

فخرج المختار بن عوف المذكور إلى أرض اليمن فى الجماعة الذين صحبوه ، فبويع الإمام طالب الحق فى سنة ١٢٨ فى بعض النقل ، وكان أبو حمزة الشارى أحد أركان دولة هذا الإمام ، ولذلك أرسله لفتح الحرمين الشريفين إذ أفسد فيهما البغاة وعاث فيهما العتاة من الأمويين وولاتهم وجنودهم الذين مشوا على جسر من البغى وصراط من الظلم ، وعلم العالم الإسلامى عنهم ، فأخذت غيرة الإيمان من قلب هذه العصابة مأخذها ، فخرج أبو حمزة إلى مكة فى كتيبته التى لاتجاوز أربعمائة رجل من خيار المسلمين ، وجاء مكة فهرب منها وإليها فتولى أمرها أبو حمزة وأصحابه رحمهم الله ، وأحسنوا السيرة وحملوا الناس على الجادة الواضحة التى خلفها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأقام منار الدين على نهج سيد المرسلين ، وأحسن معاملة أهلها ولم يحك عنه التاريخ

سوءة واحدة مما يحكيه عن غيره ممن عاثوا فى بلاد الله ، ولم يسلكوا سبيل الحق .

وهنا خطب أبو حمزة رحمه الله خطبته التى أعرب بها عن مقاصده وأشار فيها إلى السيرة الصالحة ، وحرض الناس إلى الحق فقال :

بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر النبى صلى الله عليه وسلم فصلى عليه ، ثم قال كما روى ابن عبد ربه(١) فى العقد الفريد فى الجزء الرابع منه طبعة القاهرة المعروفة بالاستقامة سنة ١٣٥٩ صحيفة ٢٢٧ ، خطب أبو حمزة الشارى بمكة ، صعد المنبر متوكئاً على قوس عربية فخطب خطبة طويلة ، ترك ابن عبد ربه أكثرها بل مهمها ، وذكر منها آخرها ، وفيما ذكر منها غنية عما ترك ، لأن من لم ينفعه قليل الحكمة ضره كثيرها .

ولم يذكر ابن عبد ربه من خطب أبى حمزة إلا ما أقام الله به الحجة عليه ، وعلى أمثاله الذين من شأنهم كتمان الحق والميل إلى الباطل الذى يقوله غير الأباضية ، فإن الحق إذا قاله الأباضية لم يدخل فى الأذهان ولذلك تراه يلعن أبا حمزة حين نزل على أهل الباطل وأنب أهل الفساد وأعرب عن الحق ، ولكن أبى الله إلا أن يخلد الحق خلود الجبال ، ويمحق الباطل والفساد على كل حال .

قال أبو حمزة ، رضى الله عنه رداً على أهل مكة واحتجاجاً عليهم : يا أهل مكة تعيرونى بأصحابى تزعمون أنهم شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، أى أعمالهم أعمال المكتهلين نظراً إلى حديث خير شبابكم المتشبهون

(١)

بشيوخكم وشركم شيوخكم المتشبهون بشبابكم ، وكان أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام أكثرهم شباباً .

قال : عمية عن الشر أعينهم ، بطيئة عن الباطل أرجلهم ، أى لايرفعون أعينهم إلى ما حرم الله رؤيته من سائر الحرم ، مقهورة أرجلهم عن المشى إلى الباطل ، أى لايميلون ولايرضونه . قال : نظر الله إليهم فى آناء الليل متثنية أصلابهم بمثانى القرآن ، يصفهم بالعبادة وهكذا كانوا رحمهم الله .

قال : إذا مر أحدهم بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية فيها ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، أى أنهم تجردوا لعبادة الله طلباً لما عنده ، ورغبة فى الجنة ونعم الرغبة ونعم الراغب ونعم المرغوب فيه ، وإذا ذكروا النار اهتزت مشاعرهم وأشفقوا مما يسوق إليها أويقرب منها ، ويوقع فيها ومن خاف أشفق ومن أشفق احترق ، «وإنما يخشى الله من عباده العلماء»[١] وأن الأمر جلل فوق الطاقة من الناحيتين .

قال : وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم ، وصفهم بأنهم قوام الليل صوام النهار ، وطوبى لقوم يعيشون على هذه الحال ، مع أن غيرهم يعيش بالليل مع المغنيات والراقصات ، وفى النهار مع أهل الباطل ، وإذا جاء يوم القيامة جاء مفلساً من الخير ، مالئاً عيبته من السوء .

قال : أنضاء عبادة قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وأرجلهم يصفهم بكثرة الركوع والسجود حتى أثر ذلك على الجوارح التى من

(١)

شأنها هذا العمل ، يصفهم بكثرة العبادة كما وصفوا عبد الله بن وهب بكثرة العبادة ، فقالوا ذو الثفنات ، وهى للبعير إذ يتأثر فيها بالبروك والقيام ، رحمهم الله ورضى عنهم .

قال : مصفرة ألوانهم ناحلة أجسامهم من كثرة الصيام وطول القيام ، أى لا يزالون صُواماً قواما حتى أثر ذلك على أبدانهم ، فلم ينعموا بحياتهم كغيرهم ، لأن قلوبهم تغلى بحرارة فتحترق من خوف الله عز وجل ، وليس هذا بمديح مجتلب ، بل هى حكاية الواقع ، فكان لهم دوى بالقرآن كدوى النحل على المحاريب .

قال : مستقلون لذلك فى جنب الله ، أى يرون ذلك قليلا فى حق الله عز وجل على ما وعدهم به جل شأنه . قال : موفون بعهد الله ، أى ثابتون عليه والمراد بالعهد هنا الإسلام أو العهد الذى أخذه الله على عباده فى عالم الذر . قال منجزون لوعد الله أى موفون بما وعد الله أهل ساعته لم يغتروا برياش الدنيا . قال : حتى إذا رأوا سهام العدو قد فُوِّقت ورماحَهم قد أشْرعت وسيوفهم قد انتُضِيَت وأبرقت الكتيبة وأرعدت بصواعق الموت ، استهانوا بوعيد الكتيبة اوعيد الله ، أى لما رأوا العدو المناوئ لهم ، القائم على بغيه فى الأمة الذى لا يبالى بقتال المؤمنين ولا بقتلهم ، وتجهز للزحف عليهم ، ورأوا لوائح الموت تلوح لهم ، ومصائبه تحل قريباً من دارهم ، طالبة لهم ومعادية ، وأرعدت الكتيبة أى زمجرت كما هى العادة ، وغمغمة الحرب وهمهمة رجالها ، وذلك كناية عن تقدمها للقتال وسحبها للميدان أبطال الرجال ، لم يروا إلا ملاقاتها ولم يرضوا إلا مصادمتها امتثالاً لأمر الله وطلباً لمرضاته ، لا لحظ دنيوى يرومونه أو لملك يحاولونه ، وإنما جل مرادهم بذل

النفوس رخيصة فى طاعة الله ، فإن الجهاد فى سبيله من أعظم القرب عنده .

ولذلك لم يروا إلا التهاوى للميدان كما تهوى النجوم من السماء ، ولما سمعوا رعد الكتيبة ورأوا برقها وعاينوا مصارع الأبطال وترجل الموت ، وهى صرخات الأبطال لقاتل أو مقتول ، استهانوا بما سمعوا وهشو لما رأوا واستقبلوا الكتيبة غير مبالين بما يلاقون ، ورأوا وعيد الكتيبة بالقتال أهون من وعيدالله على من فر إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فإن وعيد الله له بغضه أعظم من وعيد الكتيبة ، ووعيد العدو أو القاعد على فراشه غير راغب فى نصرة الحق على الباطل .

قال : فمضى الشاب منهم قُدُماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه ، أى مضى متجرداً بعزم غير راهب ولا مرتاع حتى يسقط عن فرسه قتيلا فى سبيل الله . قال : قد زملت محاسن وجهه بالدماء وعُفِّر جبينه بالثرى ، وأسرع إليه سباع الأرض ، وانحطت عليه طير السماء ، والمعنى غشى الدم وجهه وعفره التراب عند اقتحام فرسه أو عند سقوطه قتيلا ، وترك فى التراب حتى لا دافن له ، فأضحى فريسة للسباع وطعمة لطير السماء من العقبان والنسور والرخم بعد ما كان عزيزاً مصونا تتحاماه الرجال ، ولا ريب فإن الجود بالنفس أقصى غاية الجود . قال : فكم من مقلة فى منقار طائر طال ما بكى صاحبها من خشية الله ، وكم من كف بانت عن معصمها طالما اعتمد عليها صاحبها فى سجوده ، وكم من خد عتيق وجبين رقيق قد فُلِق بعُمُد الحديد .

قلت فى هذه الجمل من الأسى على المؤمنين الصالحين الذين يقتلهم الظلمة والفسقة بغير حق ولا موجب إلا البغى والعدوان ، ويالعين تبكى على محرابها من خشية الله ، ثم يأخذها الطائر بعد قتل صاحبها فى سبيل

الله ، إنها لغاية مع الله ولا ترى النار عنده ، ويالرجل طالما بات صاحبها معتمداً عليها ، قائماً يصلى فى جوف الله؛ ثم يبذلها صاحبها فترضخ بالكسر والقطع من أعداء الله ، وبالجبين نيِّر يتلألأ نوراً ، وخد يلمع بالبشر سرورا ، تنحط عليه سباع الطير تأكله لا تعرف له قيمة ولا تدرى له ثمناً ، ولو علمت لبكت عليه دما .

قال : رحمة الله على تلك الأبدان وأدخل أرواحها فى الجنان ، هذا مصباح ولايته رحمه الله لها ، وبرهان حبه لأهلها ، ثم قال : الناس منا ونحن منهم إلا عابد وثن أو كفرة أهل الكتاب أو إماما جائراً أو شاداً على عضده ، أى كلنا لآدم وهو الجامعة الكلية ، وكلنا أولياء لبعضنا بعضا ، لأن أصل الفطرة جامع بيننا لم تختلف فى هذا ، وإنما اختلفنا فى العمل ، فعابد وثن والكافر من أهل الكتاب ، والإمام الجائر والشاد لعضده بالمناصرة له ، فهؤلاء أعداؤنا فى الدين نبرأ إلى الله منهم ، وندعو الله أن ينصرنا عليهم ، وهو خير الناصرين . اهـ آخر خطبة البطل الشارى رحمه الله ورضى عنه وهذه هى وجهة أهل الله ، والله الموفق لما يحبه ويرضاه .

ولما فرغ من مكه المكرمة توجه للمدينة المنورة فاحتلها ، ولا نريد أن نتكلم هنا عن صفة احتلاله وما لاقاه من مصائب ، وما كان له من عمل ، فإن ذلك إلى التاريخ ونحن هنا نريد أن نذكر خطب أبى حمزة البطل الشارى رحمه الله ليسمع كل ذى قلب ألقى السمع وهو شهيد ، فإن لسان المرء ترجمان عقله ، وإن ما انطوى عليه تعبر عنه اللسان .

قال الإمام مالك[(١)]: خطبنا أبو حمزة خطبة حيرت المبصر وردت المرتاب ، وأراد بالبصير نفسه والمرتاب هو الشاك فى دين أبى حمزة ونواياه وعقيدته ، كما أن اعتقاد الناس فيه أنه خارجى عملا بما رموا به هـذه الفرقة النزيهة الطاهرة (١) ولما سمع مالك المذكور كلام أبى حمزة وما يدعو إليه وما يشير عليه فى مسلكه هذا ، وسمع الحجج التى يلقيها أبو حمزة يقرع بها الباطل ويؤيد بها الحق بقى حائراً مرتاباً فيما هو عليه ، ولذلك قال : حيرت المبصر أى بقى المبصر فى نفسه الذى يرى أنه على بصيرة من الأمر حائراً ، فإن الحجج التى جاء بها أبو حمزة كشفت النقاب ، وأوضحت الارتياب ونفت عن الحق الغيم الذى غطى على قلوب كثير من الناس .

وقوله : وردت المرتاب أى رجع الذى فى قلبه ريب إلى الحقائق التى جاء بها أبو حمزة رضى الله عنه ، وعلى أثر ما قال مالك بن أنس ، قال الإمام السالمى رحمه الله : ليته ترك الحيرة وأخذ بالبصيرة ، ولكن من يهدى الله فلا مضل ، ومن يضلل فلا هادى له .

أما صاحب العقد وهو مالكى قال : قال مالك بن أنس رحمه الله : خطبنا أبو حمزة خطبة شك فيها المبصر وردت المرتاب ، ومعنى شك فيها المبصر ، أى أن المبصر فى نفسه لم يدر ما هو عليه عند سماع ما جاء به أبو حمزة بدليل قوله : وردت المرتاب ، أى أن المرتاب فى مذهب أبى حمزة هل هو الحق أم الحق فى غيره رجع إلى مذهب أبى حمزة

---

(١) وقيل إن المرتاب فى دينه الشاك فى مذهبه رجع إلى مذهب أبى حمزة حين اتضح له الحق .

بعد ما زال عنه الريب، وعرف أن الحق معه، ولا يخفى ان للحق نوراً يوضّح الطريق ويرشد الرفيق، ويبين المضيق ويهدى الصديق إلى أقوم طريق؛

قال صاحب العقد وهو من أعداء أبي حمزة بدليل لعنه له، ولكن لا يضر أبا حمزة وأصحابه ذلك، أما هؤلاء فقد لعنوا علي بن أبي طالب على المنابر لما أمرهم معاوية بن أبي سفيان، فكيف لا يلعنون أبا حمزة وأصحابه، وبهذا يتميز الأباضية عن غيرهم فإنهم لا يرضون عن المبطل أيا كان ولا ينأون عن الحق من كان وأين كان. قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه: أوصيكم بتقوى الله وطاعته والعمل بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسـلم، وصلة الرحم وتعظيم ما صغرت الجبابرة من حق الله، وتصغير ما عظمت من الباطل وإماتة ما أحيوا من الجور، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، وأن يطاع الله ويعصى العباد فى طاعة الله. هذه جمل تسع أوصى بها مقدمة فى خطبته كل واحدة منهن تشتمل على أنواع يستدعى ذكرها مقاما واسعاً وفراغاً طويلا، فإن تقوى الله جامعة كلية تشتمل على أصول الدين وفروعه، ويدخل فيها كل أوامر الله عز وجل ما دق منها وما جل مما حرم الله وما أحل، ومن التقوى جهاد البغاة وإقامة منار العدل، وحمل الناس على العمل بأركان الدين، والقيام بحقوق الأمة على اختلاف أوضاعها وتباين طباعها، والعمل بالكتاب والسنة من جملة التقوى.

ولا شك أن العمل بكتاب الله يتناول أمور الدنيا والآخرة ومن عمل بكتاب الله فقد جمع كل فرض الله، وكان عند الله بمنزلة تلحقه

بالشهداء والصالحين ، وترفعه درجة مع النبيين ولا مقام أعلى من العمل بكتاب الله ، وأين من يعمل بكتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

ولا شك أن خير ما وصى به المسلم أخاه تقوى الله والعمل بكتابه وما بعد هذا وصية مهما كانت ، وصلة الرحم طال ما حض الله عليها ودعا عباده إليها ، وفيها من الفضائل ما لا يخفى ، ومن الحكم الإلهية ما يطول ذكره ، وفى تعظيم ما صغرت الجبابرة وتصغير ما عظمت إحياء للحق وإماتة للظلم ، فإن الجبابرة تعظم وتصغر بهوى أنفسها ، والشرع عنها فى معزل إذ تدعى الشطارة والدراية وحسن الرأى وصادق الخبرة فيما يناسب الأوضاع العقلية ، وأين العقل من بواهر الشرع الذى أنزله الله عز وجل على أنبيائه دستوراً سماوياً وقانوناً إلهياً ، وأن مدارك البشر من واضع القضاء والقدر ، ولا يخفى أن طاعة الله تتجلى فى طاعة أنبيائه وفى اتباع ما جاء فى كتابه ، فما أمر الله به وجب وما نهى عنه من المفروض أن يجتنب ، وما سكت عنه فلأهل العلم فيه النظر المرتقب ، فإن حكمة الله تكون على أحوال فتكون حيناً نصاً مفروضاً ، وحيناً نصاً اختيارياً ، وآنا يسع تركها والأخذ بها ، وكل ذلك من فضله ومنته ، وأن يعصى العباد لأجل طاعة الله ، فطاعته تعالى مقدمة على طاعة العباد ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر العبد .

وقال : فالطاعة لله ولأهل طاعة الله ، فإن من أطاع الله أطاع أهل طاعته وعصى أهل معصيته ، فالمؤمنون هم أهل طاعة الله ، والكافرون والظالمون والفاسقون هم أهل معصية الله عز وعلا . قال : ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، والمعنى إذا أمر المخلوق بأمر هو مخالف لطاعة الله عز وجل ، مخالف لما أمر الله به قولا كان أو فعلا ، فلا يصح أن يطاع فيه

الآمر به ، إذ ليس للمخلوق فى الأصل طاعة ، وإن الطاعة لأهل طاعته طاعة له . فالمطيعون للنبيين أو لأئمة المسلمين مطيعون لله الذى أوجب طاعتهم من حيث كونهم على طاعته جل شأنه . قال : ندعو إلى كتاب الله . قلت نعم المدعو إليه فإنه الحجة بل هو الرحمة التى أنزلها الله محفورة بملائكته الكرام ، وكذلك الدعوة إلى سنة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ هما لحمة وسداة ، أو قل هما جسد وروح ، ولا يقوم أحدهما بدون الآخر ، فإن الكتاب جاء بالإجمال ، وجاءت السنة بالتفصيل .

وقوله والقسم بالسوية ، المراد به المساوات بين المسلمين فى الأمور غير الاختصاصية ، « فإن المسلمين يد واحدة تتكافأ دماؤهم »[١] الحديث . وقوله : والعدل فى الرعيه لاريب ﴿أن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾[٢] وقوله : ووضع الأخماس فى مواضعها ، أى (للرسول ولذى القربى)[٣] الآية . وهذه هى مواضعها التى أمر الله أن توضع فيها .

وأبو حمزة رحمه الله هكذا لا يريد أن يكون فى المسلمين فى يد الفسقة ، وبيت ما لهم فى أيدى الظلمة ، ومصالحهم الدينية والدنيوية فى يد بغاة الأمة وطواغيتها للقينات والمغنيات والراقصات . قال : إنا والله ما خرجنا أشراً ولا بطراً ، ولا لهواً ولا لعبا ، ولا لدولة ملك نريد أن نخوض فيها ، يقسم أبو حمزة رحمه الله على ما خرجوا له قسما عظيماً أن خروجهم إنما كان لله ، وفى الله وفى طاعة الله ، والأشر والبطر أمران حرمهما الله فى الدين ، وأوجب عليهما عقابه لمن جاء بشىء منهما ، لأنهما من صفات الفساق فى الدين .

قال : ولا لثأر قد نيل منا أى لنا ثأر عند أحد من الناس ، نريد أن نؤاخذ به ولم ينل أحد منا ما ليس له فإنا أكفاء لقومنا نقبل الحق ونأمر به ، ونرد الباطل وننفر منه ، ثم قال ولكنا لما رأينا الأرض قد أظلمت ومعالم الجور

قد ظهرت وكثر الادّعاء فى الدين، وعمل بالهوى ، وعطلت الأحكام ، وقتل القائم بالقسط ، وعنف القائل بالحق سمعنا منادياً ينادى إلى الحق : وإلى طريق مستقيم ، فأجبنا داعى الله فأقبلنا من قبائل شتّى قليين مستضعفين فى الأرض ، فآوانا الله وأيدنا بنصره ، فأصبحنا بنعمته إخوانا ، وعلى الدين أعوانا .

يقول أبو حمزة رحمه الله : إن الأرض أظلمت ، يعنى بالجور والظلم الذى انتشر بها والفوضى التى عمت أرجاءها ، وعدم الرادع لأهل الفساد فيها ، ورأينا معالم الجور قد ظهرت ، وعدم الإنصاف من الباغى ، وعدم القائم بالحق ، وانطمست معالم الهدى ، وفتحت أبواب الفساد فى الأرض ، وكثر الادّعاء للزعامات والمنافسات كبراً وبطرا ورئاء الناس كل يقول : أنا أحق بالأمر ، وأنا ابن الخليفة الفلانى ، وحفيد الأمير الفلانى ، وابن العالم الفلانى ، وكل تلك الادعاءات لا يراد منها شىء لله ، وإنما يراد منها التسلط على عباد الله ، ولأكل الدنيا بالدين ، وعُمل بغير الحق الذى أنزله الله واتّبع الهوى ، وتُرك الحق وخُذل أهله ، وعطلت أحكام الله التى أنزلها فى كتابه والتى أعلنها فى خطابه والتى قام بها النبى عليه الصلاة والسلام فى عهده ، ودعا للعمل بها من بعده ، وعند ذلك من تكلم بحق زجر ، ومن دعا إلى حق قتل ، ومن ناصر الحق أهين ، ومن أظهر الحق فقد وقع فى الخطر ، وعند ذلك سمعنا داعى الله ينادينا ، وزواجر الكتاب والسنة تنعى ذلك إلينا ، والقرآن بين أيدينا يقول : (فاستجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله)[١] ، (فاستقم كما أمرت)[٢] ، (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)[٣] ، (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى)[٤] ونحوها من الآيات البينات ، فأقبلنا من قبائل شتّى ؛

ومن شعوب تخاف الله أن ينتقم منها ، قليلين مستضعفين تقتحمنا العيون ، وتنبو عنا الظنون ، فآوانا الله فى كنفه ، وأعزنا فى أرضه ، وأيدنا بنصره ، لا بحول منا ولا بقوة ، فأصبحنا والحال أنا مؤمنون بالله ، مطيعون لأوامره خاضعون لحكمه ، لا نرى غير ما يرى لنا ربنا ، وأعاننا على أمر ديننا ودنيانا ، وهذا من أكبر نعم الله علينا وهذا من شكره عز وجل ، كما يعلم أن الاعتراف بفضل الله شكر له عز وعلا .

ثم قال : يا أهل المدينة أولكم خير أول وآخركم شر آخر ، يعنى أولكم من آوى الدين واحتضن سيد المرسلين محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، وجاهد بالمال والحال ، وشارك فى جميع الأعمال الخيرية ، وتجرد لنصرة الحق حتى أتى مدحهم فى كتاب الله نصاً يتلى طيلة الدهر ، وآخركم أنتم الذين ركبكم البغى ، وانتشر بينكم فساد بنى أمية ، ولا تنكرونه ولا تتبرمون منه ، وتطيعون الفسقة أهل الخمور والزمور والملاهى ، وهذا مما يحط من قدركم ويغض من شرفكم ، فإن الشرف فى الإسلام بالطاعة والعزة بالتقوى ، لا باتباع الأهواء .

قال : إنكم أطعتم قراءكم وفقهاءكم فاختانوكم[1] عن كتاب غير ذى عوج بتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ، فأصبحتم عن الحق ناكبين أمواتاً غير أحياء ، ولكن لا تشعرون ، أراد رحمه الله بهذا الكلام تحميسهم ، ولكن لا حياة لمن تنادى ، والمعنى ظهر فيكم قوم تبعوا أهواءهم وركبوا عشواءهم ، فأصبحوا ينقادون لأهل الباطل جاروا أم عدلوا ، وقد رأى منهم ما لا يرضى فى الدين ، وعلم من أحوالهم سوءاً لا يليق حتى فى المروءة ، فإنه سيذكر ما رأى وسمع من القوم تصريحاً وتلويحا ، ومن

حيث إن القوم هم ذرارى أولئك السادة الأفاضل الذين هم أشهر من نار على علم فى الإسلام .

أسف أبو حمزة على ما رأى منهم من سوء قال : يا أهل المدينة يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ما أصح أصلكم وأسقم فرعكم ، كان آباؤكم أهل اليقين وأهل المعرفة بالدين والبصائر النافذة والقلوب الواعية ، عاتبهم بهذا العتاب اللاهب حماساً ، وأنبهم على ما رأى منهم من العداء السافر ، ورضوخهم تحت أقدام الباطل ورضاهم بما لا يحل به الرضا فى الدين ، فشكر آباءهم وثنى عليهم وأنّب الخلف على مخالفتهم لسيرة السلف الصالح الذين وصفهم بأنهم خير أول وأنهم أبناء المهاجرين والأنصار الذين كانوا معالم الهدى وأركان الشريعة وأعمدة التقوى ، وأنكم ترضون بما لم يرض ببعضه سلفكم الصالح ، وأشار إلى ما وقع من هؤلاء الذين يتهافتون تحت أقدامهم على ما هم عليه من الضلال والفساد ، فقد استباحوا الحرم وفعلوا كل محرم وأهانوا أهل العلم وفعلوا ما لم يقبله أهل الإيمان ، ولا يرضاه أهل الدم الحر ، فضلا عن أهل الإيمان والتقوى .

قال : وأنتم أهل الضلالة والجهالة استعبدتكم الدنيا فأذلتكم ، أى أصبحتم لا تنظرون إلا إلى الدنيا ورياشها وزخارفها والنظر إلى الدنيا يصرف النفوس عن الآخرة ، ويعمى القلوب عنها ، وبقدر اشتغاله بالدنيا يكون انحرافه عن الآخرة إذ هما ضرتان . قال : والأمانى فأضلتكم ، أى استعبدتكم الأمانى المبهرجة . قال : الله عز وجل (ويلههم الأمل)[1] إن الأمانى حبائل الشيطان ومصايده ، بها يصطاد من أراد فيزخرفها لهم ويرينها فى نفوسهم ، وحب الدنيا والالتفات إليها ينسى الآخرة وأعمالها ، وفى ذلك الضلال المردى والوبال المهلك والعياذ بالله .

قال : فتح الله لكم باب الدين فسددتموه ، وأغلق باب الدنيا ففتحتموه والمعنى أن الله جعل المدينة باب الدين منها يدخل عليه لكون رسول الله عليه الصلاة والسلام فيها حيا وميتا وهى مدينة العلم ، وبموته كانت طيبة دار هجرته ، فيها رجال العلم قد ضربوا سرادقهم ، المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم ، وهم أعمدة باب العلم ، وبأيديهم مفاتيحه ؛ ولما جاء الخلف فى مسرح اللهو بهذه الدنيا انسد باب العلم مغلقا على رجـــاله الأوفياء وأئمته الأتقياء .

قال : سراع إلى الفتنة ، بطاء عن السنة ، عمى عن البرهان ، صم عن العرفان ، عبيد الطمع خلفاء الجزع ، ومعنى سرعتهم إلى الفتنة انقيادهم لمن جاء مضاداً للحق ، وكان واجبهم وهم أبناء الأنصار والمهاجرين مناصرة الحق وتأييد المحق ، كان من أقاربهم أو من أباعدهم ، وإذا بهم على خلاف ذلك ، فإن أبا حمزة جاء للحق وهو يعض على أصابعه ندما لأفعال أهل الباطل ، لا يريد ملكا ولا يريد التسلط على عباد الله ، إنما خرج ردءاً للحق ونصرة للمظلوم ، وقد علم حال الأباضية من أول يوم من أيامهم ، وإذا بأهل المدينة يتقدمون لقتالهم خلف أهل الزيغ عن الحق وراء أهل الضلال والفساد الذين كانوا على أيديهم انتهاك حرمهم وفض أبكارهم وأخذ أموالهم ولكن لقد صح القائل :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

وقد ألف القوم الخنوع والخضوع ، وانقادت نعرتهم للزعامة الجائرة عملا بأنهم منهم وإليهم . أما حمزة وهو العمانى اليمانى لا يحق إلا قتاله وطرده والقضاء عليه ، وقد سمعوا عنه فى فتح مكة وتبينوا حقيقة أعماله الزاكية وخصاله الحميدة ، وشاع عدله وعرف فضله ، والحق

أحق أن يتبع ، والمسلم لا يكون مسلما بمعنى الكلمة إلا إذا كان على منهج الشارع الكريم ، وليس يخفى الحق على أحد أبداً وكونهم(١) . . . . عن السنة هي أن السنة فى الإسلام قتال الباغى وردع (٢) . . . والقيام فى وجه المجرم الذى لا يبالى بما يأتى ويذر ، وقوله : عمى عن البرهان ذلك أن الله يقول : (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله)[١] (قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)[٢] (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة)[٣] (لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا)[٤].

ومن هم الكفار هم الكافرون شركاً وبغاة الأمة كفار نعمة ، والكل عصاة لله خارجون على أحكامه ، فإن الكفار استحقوا العذاب بعصيانهم لربهم وتمردهم على أوامره ، وإن كان الفارق بين الكفر شركا والكافر عصيانا معروف ، وإذا لم يتب العاصى من عصيانه كالكافر إذا لم يتب من كفره فإن تاب الصنفان قبل الله منهما ، وإن أصرا على عصيانهما هلكا بإصرارهما ، (ومن يتولهم منكم فإنه منهم)[٥] وقوله : صم عن العرفان أى لا يصغون للحق ولا يقبلونه ، أصم عن الشيء الذى لا أريده وأسمع خلق الله لما أريد ، قال عبيد الطمع حلفاء الجزع ، أى إنكم تتهافتون إلى الطمع وتتنافسون فيه ، وإنما تقطع أعناق الرجال المطامع ، ومن استهواه الطمع ذل لأنه لا يطمع إلا ليجمع ولا يجمع إلا إذا خضع لما جمع ، ولا شك أن من جمع رغب أن يكون مع ما جمع ، فلذلك يذل ويخضع ، وبذلك أيضا يكونون عبيد الطمع حلفاء الجزع ، فجعل

(١ ، ٢) هنا بياض فى الأصل .

ما عندهم جمع الرياش وزخرفة القماش ، وفى الحكمة المأثورة : من طمع ذل ، وهو واضح .

قال : نعم ما ورثكم آباؤكم أى أن آباءكم اكتسبوا التقوى ورفضوا الأهواء ، وثبتوا على الحق وناصروا أهله ورفضوا الباطل ، ومن جاء به حتى قاتلوا آباءهم عن الحق وتباعدوا عن إخوانهم حين لم يستقيموا . قال وبئس ما تورثون أبناءكم ، أى الأبناء الكرام يتبعون آباءهم عادة لا سيما فى الخصال السامية والمعارف العالية والمقاصد الحميدة :

بأبه اقتدى عدى فى الكرم ٭ ومن يشابه أبه فما ظلم

وإذا كان الأمر كذلك وأنتم على هذا الحال فستورثون أبناكم أسوأ الخصال ، إذا تبعوكم على ما أنتم عليه ، وياللأسف إذا تبع الأبناء الأحوال المسترذلة التى لا تسوق إلا إلى أدنى الأمور ، فإن الله يحب معالى الأمور ويكره سفسافها ، وأعمال المسلمين الأولين لا مزيد عليها ، وقد أعجزت من جاء بعدهم وأتعبت من رام اللحاق بركبهم ، وأين الثريا من يد المتناول . قال : إن تمسكوا به أى إن التمسك بما ذكر قبيح مستقبح ، وبئس الصنيع ، قال : نصر الله آباءكم على الحق وخذلكم على الباطل ، أى أن الحق أحق أن يتبع ، وما بعد الحق إلا الضلال ، كان السلف على الحق الصريح والدين الصحيح ، ثم صار الخلف على خلاف ذلك ، ولذلك ركنوا إلى الظلمة الذين جعلوا الخلافة قيصرية أو كسروية بعد ما كانت محمدية صديقية ، ولا ريب أن الإسلام دين الله ، والظلم والجبروت دين الشيطان .

قال : نصر الله آباءكم على الحق وخذلكم على الباطل ، كان عدد آبائكم قليلا طيبا ، وعددكم كثير خبيث ، قلت لقد مدح الله القليل فى عدة

أحوال ومناسبات كثيرة ولا يزال القليل بطبيعة الحال ممدوحاً (إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره)[1] (إلا الذين آمنوا وقليل ما هم)[2] ، (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون)[3] (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً)[4] ، (فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله)[5] ، وهذا شأن الله عز وجل فى تأييد القليل ، ولاشك أن الخبيث ولو كثر إنما هو كالزبد يذهب جفاء ، ولو أعجبتك كثرة الخبيث .

قال : فاتبعتم الهوى فأرداكم واللهو فأسهاكم ، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تنزجرون ، وتعبركم فلا تعتبرون ، لا شك أن من اتبع اللهو أفلس عند الله ولوكان أغنى الأغنياء ، فإن اللهو فساد فى الدين ، وقد ذم الله تعالى اللهو فى كتبه المنزلة ، وعلى ألسنة أنبيائه المرسلة فى عدة مقامات ، ونهى النفس عن الهوى ، وقد أكثر العلماء والشعراء من ذم اللهو لما فيه من فساد ، وما يترتب عليه من سقوط الدين وانهيار صروحه ، نعوذ بالله منه ، ولقد وعظ الله عباده بمواعظ تتصدع لها الصخور ، وتذوب لها الشعور ، وتنفطر لها الأكباد والصدور ، وما يعقلها إلا العالمون .

بهذه الأحوال يؤنب أبوحمزة أبناء المهاجرين والأنصار ، ويلهب ضمائرهم ويحمى حفائظهم بحرارة الإيمان ، ويحرك هواجسهم بنفثات الكلام ، فإنه يثير العواطف الحية ، ولكن لا حياة لمن تنادى ، وكما يقال : لمن تقرأ زبورك ياداود . ثم احتج عليهم بقوله : سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم والله ما فيهم الذى يعلم ؛ والمعنى هذا مقالكم فيهم وماذا عسى أن يفعل الجاهل والذى لايعلم يجب أن يهتدى بمن يعلم : وذلك أمر مفروض من الله (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[6] ؛ (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)[7] فى آيات .

ومن جملة مقالهم فيهم ما حكاه البطل الشارى عنهم بقوله : أخذوا المال من غير حله فوضعوه فى غير حقه ، قلت هذا من أكبر الكبائر فى الدين ، قال : وجاروا فى الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله ؛ قلت هذا أكبر من الأولى لأن من حكم بغير ما أنزل الله سماه الله فى الآية الأولى كافراً [1] ، وفى الآية الثانية سماه الله ظالماً [2] ، وفى الآية الثالثة سماه فاسقاً [3] ، فتراه جمع صفة الكفر والظلم والفسق ، وإنها لكبائر يهلك بها راكبها والعياذ بالله . قال حاكياً عنهم مما قالوه عنهم : واستأثروا بفيئنا فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم ، وجعلوا مقاسمنا وحقوقنا فى مهور النساء وفروج الإماء ، أى ظلمونا حقوقنا التى شرعها الله لنا ومقاسمنا من الفىء الذى ذكره الله فى كتابه العزيز ، فكانوا ينفقونها فى صدقات النساء فيهن ، ويتنافسون فى شراء الإماء الغاليات الأثمان ، ويبذلون فيهن ما عز وما هان تبعاً لشهواتهم ، ولا يرون لنا حقاً ، بل الحق لهم والفىء إليهم ، وهذا كله حرام بنص القرآن الكريم وإجماع الأمة ، ولا يحتاج إلى ذكر ما دل على ذلك من النص ، فإنه واضح .

قال أبو حمزة رحمه الله رداً عليهم فى هذا المقام الحرج الذى ظلوا يتبرمون منه ، ومن أعمال السادة الأمويين : وقلنا لكم تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا حقوقنا ، وظلموكم حقوقكم ، وجاروا فى الحكم فحكموا بغير ما أنزل الله ، فقلتم لا نقوى على ذلك ووددنا لو أصبنا من يكفينا ، فقلنا نحن نكفيكم ، ثم الله راعٍ علينا وعليكم ؛ إن ظفرنا لنعطين كل ذى حق حقه ، فجئنا فاتقينا الرماح بصدورنا والسيوف بوجوهنا ، فعرضتم لنا دونهم فقاتلتمونا ؛ فأبعدكم الله : والمعنى قمنا لله عزوجل وطلبنا منكم أن نكون نحن وإياكم على هؤلاء الذين بدلوا أحكام الله

بأحكامهم ، وظلمونا نحن وإياكم حقوقنا ، فنكون يداً واحدة ولسانا واحداً ندعو إلى الله وإلى نصرة دينه الذى أضاعه هؤلاء الناس جهاراً وداسوا كرامته ، فقلتم لانستطيع ولانقدر على ذلك نخشى صولة هؤلاء علينا ، وودنا او أصبنا من يكفينا ، فقلنا لكم نحن نكفيكم شر هؤلاء العتاة إن ظفرنا بهم لنعطين أهل الحقوق حقوقهم ، ولننصفن مظلومكم من ظالمه ، هذا الذى جئنا له لا نريد أن نكون ملوكا ، بل نريد أن نكون رعاة حق ودعاة رشد وسعاة هدى ، والله يعلم حقائق مرادنا ، بل هو أعلم بنا منا ، فاتقينا الرماح بصدورنا جهاداً فى سبيل الله واعتمادا على الله ، واستقبلنا السيوف بوجوهنا فى رضا الله وكنا فى غنى عما لقينا وفى بلدنا عن هذه البلاد.

إلا أنها لما كانت مهبط وحى الله وموطن رسول الله وبلغنا مايفعل فيها أعداء الله ، أخذتنا الغيرة لدين الله ، فجئنا من قبائل شتى متفرقين أنسابا ، مجتمعين أصحاباً ملتفين أحبابا ، تجمعنا رابطة الدين وتلفنا على بعضنا بعضا شمائل الإيمان ، وتجردنا لله تبارك وتعالى أنصاراً لدينه حماة لوطن الإسلام ، لالثأر نيل منا ، ولالحاجة فدعونا للمجىء سوى مناصرة الحق ، والله ينصر من ينصر دينه ، فعرضتم لنا تقاتلونا بدلا من أن تقاتلوا معنا عدوكم وعدونا ، وهنا نزل عليهم ووبخهم واحتج عليهم بما لم يقدروا على إنكاره ، ولم يستطيعوا رده ، ولذلك استولت عليهم الحيرة التى أشار إليها إمامهم مالك بن أنس راوى الخطبة ، ثم قال : فوالله لو قلتم لانعرف مانقول ولانعلمه لكان أعذر مع أنه لا عذر للجاهل ، ولكن أبى الله إلا أن ينطق بالحق على ألسنتكم ويأخذكم به فى الآخرة . والمعنى لو قلتم من أول وهلة لا نعرف ما تقول ولانعلمه لكان لكم فى ظاهر الحال عذر بينى وبينكم ، لأن الجاهل إذا انقاد مع اعترافه بجهله لكان له عذر

فى ظاهر الحال ، لأنه لايساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فإن قتال الباغى على الأمة قد لايدركه ضعفاء العقول ، ولقد عارض عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبا بكر فى إرادة قتال مانعى الزكاة حتى أرشده الله وأبان له وجه الحق الذى اعتمد عليه أبو بكر رضوان الله عليه ، وشرح الله صدر عمر لذلك .

ولكن الحقيقة يعلمون بغى الباغى وحكم الله فيه ، ولكن القوم أهل تقليد مذهبى ، فإن التقليد معهم مفروض إذ يعتقدون أن القوم هم أولياء الله وأولو الأمر والخروج على أولياء الأمر لايجوز جاروا أم عدلوا ، ويعتبرون أبا حمزة جارما عليهم فيجعلون المجرم محقا والمحق مجرما على قاعدة مذهبهم ، ولذلك لما ثار أولئك على أبى حمزة رحمه الله ثار هؤلاء معهم وقاتلوا أمامهم وناصروا على أبى حمزة الشارى الذى باع نفسه وتجرد لرد أهل الظلم عن ظلمهم ، وردع أهل الفساد عن فسادهم ، ويعتقدون ذلك دينا .

ولاشك أن الله يعاقب من أعان الظالم على ظلمه ، بل يعاقب على خذلان أهل الحق .

قال ابن عبد ربه : لما وصل الكلام إلى هذا المقام حاكيا عن أبى حمزة الشارى بقوله: ثم قال الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة : حاكما جاء بغير ما أنزل الله ، أو متبعا له أو راضيا بعمله ، ومعنى ذلك أن العنصر البشرى فى الأصل واحد قال الله عز وجل : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل)[1] ، ومن الناحية الدينية فالمسلمون أولياء لبعضهم إلا من جار فى الحكم إماماً كان أو ملكا أو حكم بغير ما أنزل الله أو كان متبعا لمن هذه صفته أو متابعا له فى أعماله أو راضيا بها ، وهى ضلال فإن الله حكم على أهل الضلال بالوبال .

(١)

قال ابن عبد ربه : أسقطنا فى هذه الخطبة ما كان من طعنه على الخلفاء فإنه طعن فيها على عثمان وعلى بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز . قلت إذا كان أبو حمزة طعن على المذكورين فغير أبى حمزة قتلهم ، فإذا كان قتلهم ظلما فينبغى أن يلام القاتل أكثر من لوم القائل ، فما بالكم ترضون عن القاتل وتبرئونه وتلومون القائل وتلعنونه ، أهكذا يقول الحق ؟ أبهذا يقضى الإيمان ؟ أهذا من الإنصاف ثم والله بهذا ذهب الدين وما بقى إلا اسمه إنا لله وإنا إليه راجعون ، قوم يقتلون عثمان ، وقوم يلعنون عليا على المنابر ، وقوم يسمون الحسن ، وقوم يقتلون عليا ، وقوم يقولون لهؤلاء رضى الله عنهم ، أبمثل هذا الحال يقوم الدين؟ ! إنها مصائب تتحكم على أهواء الناس .

قال ابن عبد ربه : ولم يترك أى أبو حمزة من جميع الخلفاء إلا أبا بكر وعمر ، وكفّر من بعدهما قلت لاتلومه ، فإن أحدهما أبوه والآخر أخوه ، أما من عداهما فليس بينه وبينهم قرابة ، أو أنهم قتلوا أباه أو قتلوا قومه . قال ابن عبد ربه : فلعنة الله عليه . قلت لقد بليت نفسك يا ابن عبد ربه بلعن من لاتعلم هل استحق اللعن أم لا ؟ فإن كان استحق اللعن عند الله فأنت لعنته بغير علم ، لأن ما يعلمه الله لاتعلمه أنت ، والمسلم لايكون طعانا ولا لعانا ، وإن كان عند الله لايستحق اللعن فقد اقترفت بلية لاتقذف بك إلا على جمر جهنم ، وكنت غنيا عن ذلك وفى سلامة منه ، ويكفيك أن تحكى عنه ما قال ، والله يعلم المفسد من المصلح .

قال ابن عبد ربه : إلا أنه ذكر من الخلفاء رجلا أصغى إلى الملاهى والمعازف ، وأضاع أمر الرعية فقال : كان فلان بن فلان من عدد الخلفاء عندكم وهو مضيع للدين والدنيا ، اشترى له بردان بألف دينار ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، أو قال والتحف بالآخر ، وأقعد حبابة عن يمينه وسلامة

عن يساره ، وقال ياحبابة غنيني وياسلامة اسقيني ، فإذا امتلأ سكرا شق ثوبه وقال ألا أطير فطر إلى النار وبئس المصير ، فهذه صفة خلفاء الله تعالى ، وقولك إنه ذكر من الخلفاء رجلا أصغى إلخ مابالك لاتذكره باسمه والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « اذكروا الفاسق بما فيه متى يعرفه الناس »[١] وقال عليه الصلاة والسلام : « أترعون عن ذكر الفاسق بما فيه متى يعرفه الناس »[٢] وابن عبد ربه يقول : هو من الخلفاء ويكتم حتى اسمه ويصفه بأنه أضاع أمر الرعية وأمر الدين والدنيا ، وأنه اشترى له بردان بألف دينار من بيت مال المسلمين ، أفي مثل هذا ينفق بيت مال المسلمين ، ثم شتمهما حين غنته حبابة وسقته سلامة حتى أراد أن يطير ، فكم لعنة لعنته يا ابن عبد ربه على هذا الحال.

هذه خطبتنا أبي حمزة في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وذلك كلام الإمام مالك في خطبة أبي حمزة برواية ابن عبد ربه ، وهذا كلامه هو في أبي حمزة. لاجرم مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد والله المستعان .

بتمام العبد الفقير إلى مولاه محمد بن حسن الرمضاني بيده .
تاريخ يوم ١٩ محرم سنة ١٤٠٠ هـ الموافق ٩ – ١٢ – ١٩٧٩ م

محتويات الكتاب

مطابع سجل العرب

رقم الايداع ٤٨٨٢ لسنة ١٩٨٠